الأعلام من الأدباء والشعراء



الشَّرِيفُ الرَّضِيّ

حَيَاتُهُ وَشِعْرُهُ

إعداد
حسن جعفر نور الدين
ماجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء



الشريف الرضي

حياته وشعره

إعداد

حسن جعفر نور الدين

ماجستير في اللغة العربية وآدابها



دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين .

دراسة الشريف الرضي من أروع الدراسات وأشقها . فنحن في مواجهة رجل من كرام الرجال ، وشاعر من أغنى من أنتجتهم الأمة العربية والإسلامية على امتداد تاريخها .

وقد تناولت في هذه الدراسة المتواضعة حول الشريف : عصره وحياته وسيرته الأدبية فتكشفت لي كنوز قل نظيرها . ومواطن من الجمال والروعة تسحر الألباب .

والشريف بحاجة إلى دراسة أعمق وأشمل وأكمل ، تعطي لفارس الشعر حقه ، وتوفيه ما أغمطه هذا الحق كتاب وأدباء حديثون وقدماء .

إن التاريخ لن يغفر لأولئك الذين أهملوا الشريف وتجاوزوا عنه ، ولم يذكروه في دراساتهم ولو بكلمة واحدة ، في حين أغدقوا على غيره مئات الصفحات .

ولكن لا يقلقنك أيها الشريف وأنت في الملأ الأعلى ، حسب شعرك أنه صنو التاريخ ، وستتكشف للناس يوماً بعد يوم

فرائد من الشعر الجميل لا يفقهها إلا من تذوق حلاوة قصائدك وأبحر في محيطك الصافي النقي .

وسيعرف الناس يوماً بأنك أشعر العرب .

عصر الشريف

الأوضاع السياسية .

ولد الشريف في أواسط القرن الرابع الهجري ، عصر الانقسام الفعلي للدولة العباسية ، فقد خرجت على سلطة الخلافة معظم الأمصار والأقاليم ، وقامت دويلات تنازعت السلطة في ما بينها فالعباسيون في العراق والفاطميون في مصر والمغرب العربي والبويهيون في فارس والعراق والحمدانيون في حلب والموصل والأمويون في الأندلس والغزنويون في الهند وأفغانستان والسامانيون في بخارى والعقيليون في الموصل .

إذن شهد الرضي خلال حياته صراعات سياسية كثيرة ، وكان خلفاء بني العباس في عهده لا يملكون من أمرهم ضراً ولا نفعاً ، إذ كان يكفيهم من الخلافة السكة والاسم .

وكان المقتدر بالله أول خلفاء القرن الرابع ، بويع بالخلافة وهو صبي لم يبلغ الحلم ، إلا أن الناس ثاروا ورفضوا هذه البيعة وأجمع أمرهم على أن يتولى الخلافة عبد الله بن المعتز ، فهيأوا

لهذا الأمر وأخذوا له البيعة ، إلا أن حكمه لم يدم سوى ليلة واحدة ، إذ أقدم الترك على قتله عنوة وحملوا المقتدر إلى الخلافة من جديد ، إلا أن الأتراك ما لبثوا أن غضبوا عليه فخلعه زعيمهم مؤنس سنة ٣١٧ هـ وولى مكانه أخاه القاهر بالله ، وإذ يعود الصفاء إلى سابق عهده بين المقتدر وبين مؤنس تعود الخلافة إلى الأول ويجدد له مؤنس البيعة ، وما يلبث الصدام أن يعود بين الاثنين من جديد ويذهب الخليفة ضحية فيقتل سنة ٣٢٠ هـ ويعيد مؤنسٌ القاهر إلى الخلافة ، إلا أن الخلاف انفجر بين الأتراك وبين هذا الخليفة الذي أقدم على قتل مؤنس وبعض القادة الأتراك مما أثار الأتراك عامة فخلعوه سنة ٣٢٢ هـ وسملوا عينيه وبايعوا بعده الراضي بالله ولم يكن له من الخلافة إلا الاسم ، وخلفه في السلطة سنة ٣٢٩ هـ أخوه المتقي بالله وكان جاهلاً بالحكم والسياسة فنشبت في عهده حروب بين الجند ونهبت دار الخلافة فقبض عليه الأتراك سنة ٣٣٣ هـ وخلع وسملت عيناه ، ثم تولى بعده المستكفي (٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ) وفي عهده بدأ النفوذ البويهي فنزل بغداد بعد عام من توليه معز الدولة البويهي فلقبه الخليفة بأمير الأمراء وتنازل له عن مقومات السلطة ، إلا أن معز الدولة قبض عليه وخلعه من الخلافة وسمل عينيه ، وتولى بعده المطيع لله سنة ٣٣٤ هـ وكان أمره ضعيفاً والنفوذ لملوك آل بويه ، ولم يلبث معز الدولة أن دعاه إلى خلع نفسه ومبايعة ولده الطائع ففعل وكان ذلك سنة ٣٦٣ هـ واستمر الطائع في الخلافة إلى أن خلع سنة ٣٨١ هـ وتولى بعده

القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ) ولم يكن أقل من سابقيه ضعفاً وطاعة لسلطان البويهيين .

وقد عاصر الـرضي ثلاثة من خلفاء بني العباس ، هم المطيع والطائع والقادر ، فمدح الخليفتين الأخيرين بجياد قصائده ، أما الخليفة الأول فكان للرضي عندما عزل من الخلافة أربع سنوات ، وكانت صلات الرضي بالطائع عميقة جداً ، واستمرت على حالها حتى عزل الطائع بعد أن قبض عليه رجال بني بويه وجذبوه عن كرسيه بطريقة مهينة ، وقد مدحه الرضي بأكثر من خمس عشرة قصيدة .

أما علاقة الشريف بالقادر فكانت قلقة معظم الأحيان ، ورغم ذلك فقد مدحه بقصيدتين ، أدت الثانية إلى الفراق بين الرجلين إذ قال فيها الشريف :

عطفاً أمير المؤمنين فإننا
في دوحة العلياء لا نتفرق
إلا الخلافة ميزتك فإنني
أنا عاطل عنها وأنت مطوق

إذن عاصر الشريف هؤلاء الخلفاء وكانت سلطتهم وهمية لا وجود لها بالفعل لأن الديلم كانوا الحكام الحقيقيين ، وكان الخليفة صورة يجيزون بها الأحكام ، حتى إمارة الحج لم يكن الخليفة ليستطيع أن يصدر بها مرسوماً إلا إذا نص فيه على اسم الملك الذي يحكم ويسود .

وكان للشريف صلات بالملوك والوزراء والأمراء البويهيين ، فقد عاصر عهد بختيار بن معز الدولة وكان آنذاك صبياً في الثامنة من عمره ، وعهد عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ هـ ، وعهد صمصام الدولة إلى سنة ٣٧٦ هـ وشرف الدولة إلى سنة ٣٧٩ هـ وأخيراً عصر بهاء الدولة إلى سنة ٤٠٣ هـ .

وكانت أشق الأوقات على الشريف تلك التي مرت عليه أيام عضد الدولة وصمصام الدولة ، فقد كان العضد عدو أبيه وهو الذي أودعه السجن سنة ٣٦٩ هـ وظل معتقلاً مدة سبع سنوات حتى أخرجه شرف الدولة ثم منَّ عليه فرد إليه أملاكه وأقره على نقابة الطالبيين ، وكانت أيام شرف الدولة وبهاء الدولة نعمة وخيراً على الشريف ، وقد مدحهما بأروع قصائده ، وحظي بهاء الدولة بست وعشرين قصيدة من أجمل ما حفل به الديوان .

معالم الحركة الفكرية والثقافية في عصر الشريف :

لم تكن الاضطرابات السياسية والاجتماعية والمذهبية حائلاً دون تطور الحياة الثقافية في القرن الرابع الهجري ، بل كانت نعمة على الشعر والأدب ، فقد استقدم الخلفاء والملوك والوزراء الشعراء والأدباء إلى قصورهم وأجزلوا لهم العطاء فقويت حركة الشعر ونمت ، كما أن انقسام الدولة إلى دويلات مستقلة عن بعضها البعض أثمر خيراً على الحياة الأدبية ، وقد أسهمت الحياة الاجتماعية القلقة ونشوب الثورات وشيوع الفساد والسلب والنهب إلى طبع الشعر والأدب بطوابع متنوعة .

ولقد أسهم البويهيون في النهضة الأدبية فكانوا يستكتبون العلماء والأدباء ، كما أن بعض ملوكهم كانوا ميالين إلى الشعر والأدب . فأبو إسحٰق الصابي ألف إلى عضد الدولة كتابه التاجي في أخبار بني بويه ، وألف له أبو علي الفارسي النحوي كتاب الإيضاح والتكملة في علم النحو ، وكان هو نفسه ينظم الشعر. كما كان عز الدولة وتاج الدولة من شعراء بني بويه .

كما برز في عصرهم أدباء ووزراء في وقت واحد كابن العميد وزير ركن الدولة والصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وعبد العزيز بن يوسف وكان كاتب الإنشاء لعضد الدولة ووزيراً لبهاء الدولة ، كما أنه كان إلى جانب ذلك شاعراً وصديقاً للشريف .

وهكذا فقد شهد القرن الرابع نهضة فكرية شاملة ، وتطور النقد وألفت فيه الكتب ، واغتنى القاموس اللغوي ، وحفلت قصور الخلفاء بمساجلات ومناظرات ، وغصت دور العلماء والفقهاء وحلقات التدريس بطلاب الأدب ورواد المعرفة من شتى الجهات .

١ - **الشعر والشعراء** : اتسع نطاق الشعر وتنوعت أساليبه ، وانتشرت أبواب جديدة فيه كالإخوانيات والسلطانيات وشعر الشكوى ، وقد ذاع صيت شعراء كثيرين كالمتنبي وأبي فراس الحمداني والوأواء الدمشقي ومحمد بن عبد الله السلامي وأحمد بن محمد النامي وابن نباتة ومهيار الديلمي

وأبي العلاء المعري علاوة على الشريف الرضي . وقد عاصر الشريف شاعرين عرفا بالمجون والاستهتار في شعرهما وهما ابن الحجاج وابن سكرة .

أما في النثر فقد ظهرت طائفة من الكتاب اشتهر منهم أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني وأبو علي القالي وأبو إسحٰق الصابي وأبو بكر الخوارزمي .

٢ ـ **النقد** : كما نشط نقد الشعر ودراسته في هذا العصر ، فألفت في هذا الباب مجموعة من الكتب ، واشتهر من النقاد ابن طباطبا صاحب كتاب عيار الشعر وقدامة بن جعفر صاحب كتاب نقد الشعر وعلي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب الوساطة والحسن بن بشر الآمدي صاحب الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، وأبو هلال العسكري صاحب كتاب الصناعتين وأبو منصور الثعالبي مؤلف يتيمة الدهر وأبو العلاء المعري صاحب رسالة الغفران .

٣ ـ **اللغة** : أدى تطور العلوم الفقهية والجدل والمناظرة إلى ظهور مصطلحات خاصة في اللغة ، علاوة على ما نادى به كل من أبي علي الفارسي النحوي وتلميذه ابن جني من ضرورة الخروج باللغة من نطاق التوقيف إلى نطاق القياس والاشتقاق . كما سَهُل تناول اللغة من المعاجم بعد أن رتبت على حروف الهجاء .

٤ ـ **علم الكلام** : شهد القرن الرابع الهجري مذاهب عقيدية

وفكرية كثيرة ، كالإمامية والأشعرية والمعتزلة والزيدية وغير ذلك ، وقد احتدم الصراع الفكري بين هذه الفئات ، فظهرت مؤلفات كثيرة في كل اتجاه . ومن علماء المعتزلة عبد الجبار المعتزلي قاضي القضاة ، وبرز أبو الحسن الأشعري في علم الكلام وكان بادىء الأمر معتزلياً ثم ارتد وأظهر فضائح المعتزلة على المنابر ، وكان كثير النتاج إذ بلغت تصانيفه خمسة وخمسين مصنفاً ، وقد ناصره جماعة من أكابر علماء عصره كالباقلاني وكان يلقب بسيف السنة ولسان الأمة ورأس المتكلمين ، والاسفراييني وكان عظيم الجاه انتهت إليه رئاسة الدين والدنيا .

كما نبغ من الإمامية أبو عبد الله بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد ، والمرتضى شقيق الشريف وأبو جعفر الطوسي .

السيرة الذاتية

الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الطاهر ذي المناقب أبي أحمد الحسين بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب الموسوي ، ولد في بغداد سنة ٣٥٩ هـ ، قال الشعر بعد أن جاوز العشر بقليل ، وقد كان كما ذكره الثعالبي في يتيمة الدهر أبدع أبناء الزمان وأنجب سادة العراق ، يتحلى مع محتده الشريف ومفخره المنيف بأدب ظاهر وفضل باهر وحظ من جميع المحاسن وافر ، استهل في حجور سامية ودرج في أحضان الأمانة وعاش في ظل وارف من الزعامة والعظمة ، زود ثقافته من المحيط المفعم بالنقباء والعلماء والأدباء ، هم أسرة أبيه المشهود لهم بالتقوى والعلم والإيمان والأدب ، وأسرة أمه فاطمة بنت الناصر الكبير صاحب الديلم .

كان أبوه ذا إرادة قوية وأصالة رأي ، عظيم المنزلة عند الخلفاء العباسيين والملوك البويهيين ، تولى نقابة الطالبيين وإمارة الحج وديوان المظالم مرات ، وكان فيها مثال العالم التقي

العادل ، ولد له أولاً الشريف المرتضى سنة ٣٥٥ هـ ثم الشريف الرضي ، ولما شبا كانا ينوبان عن أبيهما في أمور نقابة الطالبيين ، تولى الشريف الرضي وظائف أبيه جميعها سنة ٣٨٨ هـ وذلك بعد أن أعفي أبوه منها سنة ٣٨٤ هـ .

تتلمذ الشريف لعلماء عصره في بغداد ، وكانت علاقته بهم تتسم بالمحبة والاحترام والإعجاب ، فهو يشيد بذكرهم ويدعو لهم في مؤلفاته ويترحم عليهم باستمرار ، ويبلغ من محبة أساتذته له أن يقدم له الفقيه المالكي أبو إسحٰق بن أحمد الطبري داراً له ، ولما امتنع الشريف عن قبولها على أساس أنه لا يقبل من غير أبيه شيئاً ، ألح عليه أستاذه قائلاً : حقي عليك أعظم من حق أبيك . فرضخ الشريف للأمر .

أخذ الشريف النحو واللغة عن أبي علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ، وأبي الفتح بن جني سنة ٣٩٢ هـ وأبي سعيد السيرافي سنة ٣٦٨ هـ ، وقصة الشريف مع ابن السيرافي معروفة ، إذ يروى أنه أحضر إليه وهو طفل لم يبلغ عمره عشر سنوات ، فلقنه النحو وقعد معه يوماً في حلقته ، فذاكره بشيء من الإعراب على عادة التعليم ، فقال له : إذا قلنا (ضرب زيداً عمرا) فما علاقة النصب في عمرو؟ فقال : بغض علي (يشير إلى عمرو بن العاص) فعجب أستاذه والحاضرون من حدة خاطره وحضور بديهته وذكائه المتوقد .

وقد تتلمذ الشريف على الشيخ المفيد في الفقه وأصول

العقيدة الإمامية ، وقرأ على عبد الجبار بن أحمد الشافعي المعتزلي وقاضي القضاة كتابه المعروف بشرح الأصول الخمسة وكتابه العمدة في أصول الفقة ، وعلى أبي بكر محمد بن موسى الخوارزمي أبواباً في الفقه ، وعلى أبي عبد الله محمد بن عمران المرزباني علم الرواية والحديث ، وعلى أبي الحسن علي بن عيسى الربعي وعلى أبي حفص عمر بن إبراهيم الكناني صاحب ابن مجاهد القراءات السبع بزوايات كثيرة وعلى أبي الحسن علي بن عيسى الرماني علم العروض لأبي إسحق الزجاج ، وعلم القوافي لأبي الحسن الأخفش وكتباً في النحو ، وعلى أبي يحيى بن نباتة علم البلاغة والخطب وآداب اللغة العربية ، كما قرأ القرآن على أبي حفص بن أحمد الكناني وروى الحديث عنه ، وأكبر الظن أنه لم يترك مفسراً لعصره إلا اختلف إلى دروسه .

هذا قليل من كثير ممن تتلمذ عليهم الشريف ، إذ أنه أخذ العلم عن الجميع دون إحراج ، فكان شيوخه من مختلف المذاهب الدينية ، ولذلك نشأ واسع العقل رحب الصدر غزير المعارف ، بعيداً عن التعصب الديني ، وكان فيه من سماحة الرأي وبعد النظر وتوقد الضمير ما أبعده عن الخوض في غمرات الصراع الديني ، ولذلك ظفر بالإعزاز والتبجيل من الجميع ، ولم تر الفئات الدينية كافة حرجاً في توليته إمارة الحج ، والتي أثبت فيها أنه للجميع دون استثناء ، وأنه مثال في السماحة والخلق الكريم .

وبلغ من اهتمام الشريف بالعلم والمتعلمين أنه اتخذ لتلامذته عمارة سماها دار العلم ، وأرصد لها مخزناً فيه جميع حاجياتهم من ماله ، ولم تكن دار العلم مدرسة فقط ، بل كانت مكتبة عامرة تضم ألوف المجلدات .

والمتتبع لحياة الرضي وسيرته يراه عالماً متعلقاً بالحق والعدل ، وبقيم الأخلاق والدين ، زاهداً عفيف النفس ، آثر المروءة والإباء وسار في طرق الصلاح والإصلاح ، فلم يجالس الخلعاء والظرفاء ، ولم يستعمل المواربة في شعره ، وعاش وفياً لأصدقائه كأحسن ما يكون الوفاء ، فهو في صداقته لا يفرق بين مذهب وآخر ، أو دين ودين ، وكان يتحرق شوقاً إلى صديق الشدة والمحنة لا صديق النعمة والرخاء .

ألقابه ومناصبه :

شغل الرضي عدة مناصب هي : نقابة الطالبيين والنظر في أمور المساجد في مدينة السلام وبإمارة الحج والنظر في أمور الطالبيين في جميع البلاد .

وقد بدأ عهد الرضي بالمناصب منذ رد الطائع لله على والده أعماله القديمة وهي : النقابة وإمارة الحج والنظر في المظالم ، وذلك سنة ٣٨٠ هـ ، واستخلف له ولديه الرضي والمرتضى ، ولم يلبث الطائع أن رتب الرضي في رتبة أبيه فولاه نقابة الطالبيين والنظر في أمور المساجد ، واستخلفه عن والده للنظر في المظالم والحج بالناس وتمت قراءة هذا العهد في رمضان من سنة ٣٨٠ هـ . وقد استمر الرضي في مناصبه مدة عهد

الطائع لله ، ولمْ يكد القادر يتولى حتى صرف الرضي وعائلته عن جميع مناصبه سنة ٣٨٤ هـ ، وظل الأمر كذلك حتى سنة ٣٩٤ هـ عندما قلد بهاء الدولة البويهي أبا أحمد قضاء القضاة والحج والمظالم والنقابة ، وكان الرضي والمرتضى يقومان فعلاً بهذه المهمات بسبب عجز والدهما .

وكانت صلة الرضي ببهاء الدولة قوية ، وقد أنعم عليه الملك البويهي بألقاب كثيرة ، إذ عينه سنة ٣٨٨ هـ نائباً عنه في بغداد ، ولقبه بالشريف الجليل وبذي المنقبتين سنة ٣٩٢ هـ ، وبذي الحسبين سنة ٣٩٨ هـ ، وولاه النقابة وإمارة الحج سنة ٣٩٧ هـ . ثم لقبه بالشريف الأجل سنة ٤٠١ هـ .

وكلفه النظر بأمور الطالبيين في جميع أنحاء البلاد فدعي نقيب النقباء وذلك سنة ٤٠٣ هـ .

وهذه المناصب والألقاب كلها دليل ساطع على عظمة الشريف ومكانته المرموقة وشخصيته الفذة ، إذ ليس باستطاعة أي إنسان أن يتولى هذه المناصب الحساسة مجتمعة في عصر تعددت فيه الأهواء والميول دون أن يكونْ نادر المثال . والشريف كان نادر المثال .

فإمارة الحج وحماية الحجيج في عصر كثر فيه السلب والنهب من أشق الأمور .

وديوان المظالم كمحكمة ينبغي فيها العدل والإنصاف لا يرتقي لها إلاَّ كرامُ الرجال .

ونقابة الطالبيين بما تحمله من هموم وأشجان حساسة لا يعتليها إلا ذو علم وأدب ونزاهة .

وكان الشريف ليث هذه المناصب وفارسها المطهم .

وهو خليق بكل مكرمة .

وفاة الشريف ومدفنه :

لم يمهل القدر الشريف، فاختطفته المنون شاباً في قمة عطائه وعنفوان تجلياته ، سبع وأربعون سنة بين الولادة والموت هي في عمر التاريخ قرون ، هكذا يقاس عمر العظماء ، بميزان البذل والتضحية والعطاء . في يوم الأحد ٢٦ حزيران سنة ١٠١٦ م الموافق ٦ محرم سنة ٤٠٦ هـ مات الشريف . فخسر الشرق آنذاك علماً من أعلام الأدب والشعر والعلم ، وحضر جنازته الأشراف والأعيان والقضاة وصلى عليه الوزير البويهي فخر الملك ، ثم دخل الناس أفواجاً عليه ، ودفن في داره الكائنة بمحلة الكرخ ، ولم يشهد جنازته أخوه المرتضى لأنه لم يستطع النظر إلى تابوته بسبب تأثره الشديد ، وخرج من جزعه عليه إلى مشهد الإمام الكاظم بمقابر قريش ، ومضى فخر الملك بنفسه آخر النهار إلى المرتضى فعزاه وألزمه العودة إلى داره .

وقد تضاربت الآراء حول مكان مدفن الرضي ، ففئة من المؤرخين ترى أنه دفن في داره بالكرخ ، وأن الدار التي دفن فيها خربت وأن القبر دثر ، وفئة ترى أن للرضي وأخيه المرتضى ضريحين قائمين حتى اليوم في الكاظمية ، وفئة ثالثة تؤكد أنهما

دفنا في كربلاء عند ضريح الإمام الحسين (ع) ، وهذا هو الأرجح ، إذ يجزم معظم المؤرخين من الشيعة وغيرهم أن جثمان الشريف نقل بعد الدفن من داره إلى كربلاء ، ثم إن الوقائع التاريخية دلت أن أسرة أبي أحمد الموسوي اعتادت تاريخياً أن تدفن أفراد الأسرة في كربلاء ، بالإضافة إلى التقاليد الشيعية المتوارثة التي تقضي بدفن الملوك والوزراء والشخصيات قرب ضريحي الإمام علي وابنه الإمام الحسين .

مات الشريف فرثاه بعض الشعراء بقصائد من عيون الشعر وبكاه شقيقه المرتضى من الأعماق ، ورثاه بقصيدة من أرق الشعر وأعذبه :

قدني إليك فقد أمنت شماسي
وكفيت مني اليوم صدق مراسي
يا للرجال لفجعة جذمت يدي
ووددتها ذهبت علي براسي
يا موت كيف أخذت نفسي تاركاً
نفساً عليها جمة الأنفاس

السيرة الأدبية

١ - في النثر :

الشريف الرضي كاتب ومفكر وفقيه وعالم ولغوي وشاعر . ويشهد نثره بأنه من أقطاب الأدباء ، يكتب في العلوم اللغوية والشرعية بأسلوب مضمخ بعطر الأدب الرفيع ، وهو رجل يحب التفرد بكرائم المعاني ، ولم تعرف حياة العلم كاتباً أمضى قلماً من الشريف ، فهو يأتي بالغرائب والعجائب في ميادين الفكر والعقل ، بأسلوب يجمع بين الرقة والجزالة .

وهناك ميزة عظيمة في نثر الشريف ، وهي طغيان العقلية العلمية على النزعة المذهبية عنده ، فقد كان مسلماً صحيح العقيدة ومعلماً عظيماً من الساهرين على رعاية الوحدة الإسلامية ، تسري في مؤلفاته أنفاس المؤمن الحق الخالص من الشوائب .

والشريف لا يطنب إلا قليلاً ، ولا يتكلم إلا بميزان ، قليل الاستطراد ، يحرص بعض الحرص على السجع وهو أحياناً ينسى الزخرف في بعض المواضع ، منوع المواهب ، وهو

باختصار من أفاضل المؤلفين وأكابر المربين ، وأشاوس الفرسان وأماجد العشاق .

ومؤلفات الشريف نجوم ساطعة في ذلك العصر وفي كل عصر ، ولا عجب في ذلك فقد استلهم أفكاره وثقافته من أغلى مصادر البلاغة العربية ، القرآن والسنة ، وكلام الإمام علي . وهذه المؤلفات المتوفرة لدينا هي :

١ ـ الرسائل ـ ٢ ـ نهج البلاغة ـ ٣ ـ تلخيص البيان في مجازات القرآن ـ ٤ ـ المجازات النبوية ـ ٥ ـ حقائق التأويل في متشـابه التنزيل .

وسنعمد الآن إلى الحديث بصورة مختصرة عن كل عمل نثري من هذه الأعمال .

١ ـ الرسائل : لم يصل إلينا من رسائل الشريف إلا سطور قليلة لا تكفي لإصدار حكم على تطور هذا الفن عنده ، وقد ضاعت معظم رسائله التي ذُكر أنها تقع في ثلاثة أجزاء ، ولم يصل إلينا إلا فصول قصيرة ذكرها ابن معصوم في الدرجات الرفيعة ، ونشرت مجلة العرفان بعضاً منها .

وتدور موضوعات هذه الرسائل حول التهنئة والتعزية والعتاب وطلب العهود ونقد الشعر .

وللشريف في التهنئة أربع رسائل ، هنأ في الأولى صديقه الوزير الحكار لنجاته مما ألم به وعودة أيام السعد والعلياء إليه ، وهنأ في الثانية الوزير الأبرقوهي بالنجاة من حادث ،

والثالثة وجهها إلى الوزير سابور بن أردشير يهنئه بعودة الوزارة إليه ، أما الرابعة فهي إلى صديقه الحميم أبي إسحٰق الصابي يرد على تهنئته له بعيد الفطر .

أما في التعزية فهناك رسالة عزى فيها أبا إسحٰق الصابي إثر وفاة ابنه أبي سعيد سنان ، وهي رسالة عبر فيها الشريف عن حزنه وألمه وإشفاقه على صديقه المفجوع .

وقد وجه معاتباً رسالة إلى أحد أصدقائه ، يذكر فيها شوقه إليه ويعتب عليه لتأخره في المراسلة ويذكره بما بينهما من عهود .

كما عتب في رسالة أخرى على بعض الوزراء لترددهم في قضاء حاجة يطلبها ، ويشكو من طول الانتظار دون جدوى .

وفي طلب العهود كتب الشريف إلى أبي إسحٰق الصابي رسالة يطلب فيها كتابة عهد له بتقليد نقابة الطالبيين والنظر في أمور المساجد واستخلافه عن والده في النظر في المظالم والحج في الناس وذلك سنة ٣٨٠ هـ .

أما في نقد الشعر فقد كتب الشريف رسالة طويلة تتناول قصيدة الصابي التي نظمها حول موضوع حفظ السر ، والأبيات التي جاءت قصيدة الصابي رداً عليها ، وقد قارن الشريف بين معاني القصيدتين مفضلاً شعر الصابي لما اشتمل عليه من معان مبتكرة واستعارات مستعذبة . وتطلعنا هذه الرسالة على آراء الشريف النقدية حول المبنى والمعنى .

ونلمح في رسائل الشريف عامة تلك العلاقات الوثيقة بينه وبين أصدقائه، كما تعتبر هذه الرسائل وثائق تاريخية وأدبية، وتشيع فيها ظاهرة الموازنة بين السجع والازدواج، وقد يعمد الشريف إلى تضمين رسائله بعض شعره، وتكثر عنده الجمل الدعائية.

٢ ـ نهج البلاغة :

خلف الشريف كتاباً نفيساً هو نهج البلاغة ، وهو مجموعة كبيرة من خطب ورسائل ووصايا وحكم ومواعظ الإمام علي . وقد ثارت الشكوك حول نسبة النهج إلى الإمام ، فيرى الكثيرون أن النهج كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة ، وربما عزوا بعضه إلى الرضي وغيره .

كان علي خطيباً مفوهاً وكاتباً فصيحاً ، فأين ذهبت آثاره في الخطابة والإنشاء . وهل يعقل أن تضيع آثاره وحوله أشياع يحفظون كل ما يتفوه به .

هل يعقل أن يحفظ الناس أشعار الخلعاء والماجنين وينسوا آثار خطيب ملأ الدنيا وشغل الناس . وإذا جاز أن يحفظ الناس ما دسه المغرضون على علي فكيف يجوز أن ينسوا ما نُسب إليه على وجه صحيح ، وأين العقل الذي يقبل القول بأن علياً لم يحي بيانه إلا في آثار المفتريات ، وضمير الشريف فوق الشبهات.

وهكذا فنهج البلاغة وثيقة أدبية وتاريخية وسياسية نادرة

المثال ، وصورة من صور النضال السياسي في مطلع العصر الأموي وهو خدمة أداها الشريف إلى اللغة والأدب والسياسة والأخلاق ، والنظر إلى نهج البلاغة يورث الرجولة والشهامة وعزة النفس ، ويعتبر شرح ابن أبي الحديد من ذخائر اللغة العربية ، ففيه فوائد متنوعة لا يستهين بها إلا الغافلون عما في ماضينا الأدبي والعلمي من فرائد وآيات .

أصل النهج :

وكتاب النهج أصلاً فصل من كتاب خصائص الأئمة كما صرح الرضي في المقدمة وقد فرغ من جمعه سنة ٤٠٠ هـ ولم يمهله الأجل لإتمام كتاب الخصائص . ويقع النهج في ثلاثة أقسام هي :

١ ـ الخطب والأوامر : وعددها ٢٤٢ خطبة وكلاماً وقد تنوعت بتنوع المناسبات والظروف التي قيلت فيها .

٢ ـ الكتب والرسائل وهي ثمانية وسبعون (٧٨) كتاباً ووصية .

٣ ـ الحكم والمواعظ ، أورد الرضي ٤٨٠ حكمة ومثلاً وموعظة تدور حول موضوعات الأخلاق والعلم والأدب .

منهج الرضي في جمع النهج :

يحتوي كتاب نهج البلاغة على المختار من كلام علي (ع) ، وكانت غاية الشريف هي الغوص على درر الفصاحة والبلاغة في كلام علي . لذلك لم يراع في اختياره التتالي والتناسق ، وإنما أخذ ما يتلاءم مع غايته التي جمع

النهج لأجلها من محاسن كلام علي ومن وجوه البيان التي اشتمل عليها . لذلك نجد في الكتاب مواضع خالية من الانسجام بين فصولها ، وقد نبه ابن أبي الحديد إلى ذلك . فهو يوزع الخطبة الواحدة أحياناً إلى عدة فصول ويورد كل فصل منها في موضع مستقل ، كما أنه قد يكرر الكلام الواحد أو الخطبة الواحدة لوجود رواية أخرى تختلف عن الأولى ، وهذا ما أشار إليه الرضي في مقدمته .

ولم تكن غاية الرضي في ما اختاره تحقيق سند ما رواه ولا تصحيح رواية ما اختاره بقدر اهتمامه بما ينسجم مع وجهته البيانية التي امتاز بها ، ووضع كتابه هذا لأجلها .

مسألة جامع نهج البلاغة :

دار الجدل حول جامع نهج البلاغة ، إذ رأى بعض العلماء أنه المرتضى وليس الرضي كما هو معروف عند الجميع ، وقد أثار الشك حول هوية جامع النهج كل من ابن خلكان سنة ٦٨١ هـ والذهبي سنة ٧٤٨ هـ واليافعي سنة ٧٦٨ هـ وابن كثير سنة ٧٧٤ هـ وابن حجر العسقلاني سنة ٨٥٢ هـ وبروكلمان ، وجرجي زيدان ، ويوسف سركيس ، والبستاني صاحب دائرة المعارف وغيرهم .

لكن الأدلة تثبت أن جامع النهج هو الشريف الرضي ، فقد اتفق معظم العلماء والمحققين من مختلف المذاهب أن

الكتاب من جمعه ، وأن تلامذة الرضي قد نسبوا جمع النهج إليه بالتواتر إلى زماننا هذا .

ثم إن الرضي نفسه صرح بذلك في مقدمة النهج .

قيمة نهج البلاغة :

يعتبر نهج البلاغة مصدراً أدبياً وفكرياً ودينياً واجتماعياً لجميع العلماء والمفكرين والأدباء، ويعتبره الكثيرون من حيث الأهمية بعد القرآن الكريم والسنة النبوية. ترجم إلى لغات أجنبية متعددة، ودارت حوله دراسات ولا تزال. وشغل المؤرخين والنقاد ففتح باب النقد على مصراعيه. وألفت الكتب التي تبحث عن مصادره وأسانيده وكثرت حوله الشروح. وهو بحث مصدر من مصادر الأدب والبلاغة والفقه واللغة والتاريخ ، ووثيقة تاريخية تصور النضال السياسي في مطلع العصر الأموي، وتتحدث عن الفرق الدينية المختلفة وقضية الخلافة ونشوء الأحزاب السياسية.

٣ ـ تلخيص البيان في مجازات القرآن :

ظل هذا الكتاب مفقوداً مدة ألف سنة حتى وجده محمد المشكاة وهو مدرس في جامعة طهران مخطوطة بالية لكتاب يبحث في آيات القرآن الكريم بعنوان الاستعارة ، وذلك سنة ١٩٤٩ م ، فأدرك أن هذه النسخة هي للشريف الرضي لما فيها من دلائل تثبت ذلك ، ومنها أن الشريف يحيل في بعض

صفحات المخطوطة إلى كتابي حقائق التأويل ومجازات الآثار النبوية ، وهما من كتبه المعروفة .

وفي هذا الكتاب أفاض الشريف وتوسع في بيانه وأطال الشرح في تعليقاته لتوضيح المراد ، فجاءت مادته غزيرة ، ويدعم الشريف آراءه التي يعرضها بشواهد من الآيات القرآنية المشابهة للمعنى الذي يؤوله بالأحاديث النبوية وبالأشعار العربية الفصيحة ، فضلاً عن توسعه وتشعبه في شرح المجازات القرآنية حتى لا يترك مجالاً لسائل أو زيادة لمستزيد .

ويبدو الرضي في تلخيص البيان أديباً وشاعراً مطبوعاً .

قيمة الكتاب :

عجز بلغاء العرب وفصحاؤهم عن محاكاة هذا الكتاب ، إذ لم يأت المجاز فيه عرضاً ، وإنما تتبع الشريف المجازات والاستعارات في القرآن سورة سورة وآية آيـة ، فقدم بذلك جهداً رائعاً في إدراك كنه الأسرار البلاغية . وقيمة الكتاب أدبية ولغوية ودينية ، ولقد خدم الشريف اللغة باستعماله هذا الفيض من الألفاظ الفصيحة والعبارات البليغة . وقد بدا في هذا الكتاب ناقداً أديباً ولغوياً دقيقاً ، فقدم شواهد شعرية كثيرة لفحول الشعراء ووقف بالاحتجاج عند العصر الأموي .

وقد ذكر الرضي وفي مقام الاستشهاد ستة أحاديث نبوية صحيحة الإسناد دل بعضها على قيمة تاريخية فريدة . كما أورد كثيراً من الآيات على قراءات للأئمة السبعة وهم ابن عامر وابن

كثير وعاصم بن أبي النجود وحمزة بن حبيب الزيات ونافع بن عبد الرحمن والكسائي ، وتلك القراءات صحيحة غير شاذة لأنها رويت عن القراء بالتواتر وتعتبر من خصائص كتاب الشريف المتنوعة .

٤ ـ المجازات النبوية :

تناول الرضي في كتابه هذا (٣٦١) حديثاً من أحاديث الرسول (ﷺ) اشتملت على مجاز طريف أو كناية دقيقة، ولم يكتفِ بسرد هذه الأحاديث بل شرحها وأبان عن بلاغتها وتتبعها متنقلاً من تحقيق لغوي إلى تطبيق على علم البلاغة إلى سياق الشاهد من كلام العرب .

والمجازات من كتب الرضي القيمة ، ألفه سنة ٤٠١ هـ بعد كتاب تلخيص البيان الذي استحسنه الناس فطلبوا من الرضي أن يؤلف لهم كتاباً على غراره يشتمل على مجازات الآثار الواردة عن رسول الله (ﷺ) ، إذ كان فيها كثير من الاستعارات وأسرار البلاغة التي يعظم النفع باستنباطها واستخراج كوامنها . وقد اعتمد الشريف في كتابه على أخبار المغازي المشهورة ومسانيد المحدثين الصحيحة وكتب غريب الحديث المعروفة مضافاً إليها ما حصله عن شيوخه أو ما أتقنه رواية .

منهج الكتاب :

لم يكتفِ الشريف بذكر الحديث النبوي حسب رواياته المختلفة ، بل كان متشدداً فوضع شروطاً لقبول الخبر الأحادي

وهو أن يكون راويه عدلاً ، ثم أضاف شرطاً آخر هو أن يعرى الخبر المروي من نكير السلف .

وحرص الرضي بعد رواية الحديث النبوي على ذكر المناسبة أو الحادثة أو الظروف التي دعت النبي لإطلاق الحديث ، ثم يذكر وجه البيان في الحديث النبوي ، فيدل على محاسن الاستعارات وبدائع المجازات في قوله (ﷺ) ، ثم يشرح الحديث ويذكر المعاني المختلفة لتفسيره ويتوسع في شرحه واستقصائه ويذكر أقوال غيره وتعليقاته ، ثم يلجأ إلى ذكر الشواهد المختلفة .

قيمة الكتاب :

دل الشريف في هذا الكتاب على ملكة قوية في النقد سواء في نقده للأحاديث المروية عن رسول الله (ﷺ) أو في التفاتاته البلاغية وتعليقاته اللغوية ، وقد أولع الرضي بهذا النوع من البيان والبلاغة خدمة للدين وتدليلاً على عظمة مقام الرسول (ﷺ) في البلاغة .

والمجازات النبوية كتاب اشتمل على قيم متعددة ، ففيه كلام في المجاز وكلام في آراء المعتزلة والشيعة وإشارات تاريخية إلى غزوات الرسول (ﷺ) ومواقفه الخطابية ووصاياه لأصحابه وجوامع كلم نبوية ذهبت مذهب الأمثال ومواعظ وحكم وفيه شعر لفحول الشعراء القدماء .

وقد حشد الرضي لدعم حججه كثيراً من الآيات القرآنية

التي تتفق مع المعنى الذي يرمي إليه فضلاً عن تعليقات شيوخه وآراء الإمام علي التي تذهب مذهب الأمثال . ولعل قيمة الكتاب التاريخية والدينية أظهر من قيمته الأدبية واللغوية ، فالرضي سعى إلى خدمة الأحاديث النبوية بنقدها وتمحيصها باستعماله علم نقد الحديث ، فالأحاديث التي جمعها في كتابه صحيحة النسب للرسول (ﷺ) ورواتها ثقاة صادقون ، وتتضمن هذه الأحاديث تشريعات ونظماً إسلامية متنوعة وعهوداً ووصايا لأصحاب النبي ، كما تتضمن حثاً على فعل الخير ودفعاً لاجتناب الشر والضلال ، كما تدل أحاديث أخرى على المعارك التي خاضها الرسول (ﷺ) والمسلمون .

٥ ـ حقائق التأويل في متشابه التنزيل :

تحدث الشريف في هذا الكتاب عن حقائق القرآن وتأويله وغرائبه وإعجازه ، وأظهر غوامضه وأسراره واستنبط آراء لم يسبق إليها وقد علق النحوي ابن جني أستاذ الشريف على هذا الكتاب بقوله : ألف الرضي كتاباً في معاني القرآن يتعذر وجود مثله .

والكتاب مفيد جداً يجمع بين فضيلتي العلم والأدب ، وهو خاص بمتشابه التنزيل وهي الآيات التي يقع اختلاف وإشكال بين العلماء في تفسيرها وتأويلها . ويعقد الشريف لكل آية من المتشابه مسألة قائمة بذاتها حتى أضحى الكتاب مجموعة مسائل متنوعة ، ولكل مسألة استقلالها العلمي وفائدتها الخاصة ، وقد ضاع الكتاب ولم يبق منه إلا الجزء الخامس الواقع بين الآية

السابعة لسورة آل عمران والآية الثامنة والأربعين من سورة النساء ، وقد أطلقت عليه نعوت كثيرة ككتاب المتشابه والكبير ، وتفسير القرآن ومعاني القرآن ودقائق التنزيل .

وهذا الكتاب من أكثر مؤلفات الرضي إشراقاً ونضجاً ، إذ تظهر فيه شخصيته قوية وعلومه غزيرة ، فيناقش الآراء ويرد على المخالفين .

منهج الكتاب :

يعرض الشريف في كتابه كل آية قرآنية على حدة ، ثم يستعرض أقوال العلماء فيها ، ويناقش الآراء السابقة ويعلق عليها منتقداً المخالفين ومستحسناً بعض الآراء مثنياً عليها ، ثم يستشهد بآيات قرآنية مشابهة للتي يشرحها ويعلق عليها ثم يدعم رأيه بما سمعه من شيوخه ، ويسوق شواهد شعرية ويعلق عليها ، كما يورد في كل مسألة تعليقات لغوية ونحوية وبلاغية ، ثم يذكر آراءه واستنباطه لآراء وتأويلات لم يسبق إليها .

قيمة الكتاب :

يعطي هذا الكتاب صورة واضحة لثقافة الرضي وشمولها مختلف ميادين المعرفة ، ويدل بشكل خاص على عناية الشريف بالقرآن الكريم وتمرسه في تدبر غرائبه وعجائبه وخفاياه . والكتاب من أعظم تصانيف الرضي الخالدة ، ومن أدلها على عقيدته ومنهجه الكلامي ، وهو يفتخر بهذا المصنف وينعته بالكتاب الكبير في متشابه القرآن .

وقد أشارت معظم المصادر إلى مكانة الكتاب ، الذي دل على ثقافة الشريف المتعددة المناحي ، وكشف عن عَلَمٍ في النحو واللغة والبلاغة ، وقد جمع الكتاب قيماً متعددة وأثار إعجاب وتعليقات علماء الكلام وفقهاء المذاهب وأئمة النحو واللغة .

إلى هنا نكون قد انتهينا من الحديث على نثر الشريف ، وبدا لنا كما سلف أنه عالم وفقيه ولغوي ومفكر ، موسوعي متبحر الثقافة واسع الاطلاع ، وهو بذلك علم من أعلام الفكر قديماً وحديثاً .

شعر الشريف

ديوان الشريف :

حظي شعر الشريف بإعجاب الشعراء والأدباء والنقاد قديماً وحديثاً ، وأثار اهتمام كثير من شخصيات عصره لما فيه من إبداع وروعة وجمال .

فالثعالبي تحدث في الجزء الثالث من يتيمته عن الشريف وأثنى على شعره ، ومما قاله فيه : « ابتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز العشر سنين بقليل ، وهو اليوم أبدع أبناء الزمان ، وأنجب سادة العراق ، ثم هو أشعر الطالبيين ، من مضى منهم ومن غبر على كثرة شعرائهم المفلقين، ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق ، فشعره عالي القدح ، ممتنع عن القدح ، يجمع إلى السلاسة متانة ، وإلى السهولة رصانة ، ويشتمل على معان يقرب جناها ، ويبعد مداها » . كما يروي الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد عن أبي محفوظ شهادة جماعة من أهل العلم والأدب ـ وهو معهم ـ أنه أشعر قريش .

وقد سحرت تقية بنت سيف الدولة الحمداني المتوفاة سنة

٣٩٩ هـ بشعر الشريف ، فأرسلت من مصر إلى العراق من نسخ لها ديوانه بكامله ، إذ لم يغنها عنه ديوان المتنبي بما فيه من تمجيد لأسرتها الحمدانية .

وكان الصاحب بن عباد وزير آل بويه من كبار الأدباء والشعراء آنذاك ، أعجب بشعر الشريف فأرسل إلى بغداد سنة ٣٨٥ هـ من ينسخ له ديوانه ، وقد شكره الشريف ومدحه بقصيدة منها :

بيني وبينك حرمتان تلاقتا
نثري الذي بك يقتدي وقصيدي
ووصائل الأدب التي تصل الفتى
لا باتصال قبائل وجدود
إن أهدي أشعاري إليك فإنها
كالسرد أعرضه على داوود

كما أن العلامة اللغوي ابن جني ، إمام النحو وأستاذ الشريف وصديقه ، عمد إلى تفسير قصيدته الرائية العصماء التي رثى فيها أبا طاهر ابن ناصر الدولة الحمداني سنة ٣٨٢ هـ ومطلعها :

ألقِ السلاح ربيعة بن نزار
أودى الردى بقريعك المغوار

وقد ذكر ابن الأثير في كتاب الكامل ديوان الشريف ، كما

أشار إليه ابن خلكان في وفيات الأعيان إذ قال : وله ديوان شعره كثير يدخل في أربعة مجلدات .

هذا قليل من كثير من المصادر التي أشارت إلى ديوان الشريف ، وكلها تجمع على عبقرية فذة وشاعرية فياضة قل مثيلها .

واستناداً إلى الأخبار السابقة يتأكد لنا أن ديوان الشريف كان يجمع في حياته ، ولو تفحصنا هذا الديوان لرأينا أن معظم قصائده قد ارخت وذكرت مناسبة كل منها ، مما يوحي بأن الشريف كان يجمع ديوانه بنفسه ، وأنه كان يضيف إليه بخطه في الحاشية ما يبدعه من معان مبتكرة وصور خلابة ، وظل حتى آخر يوم من حياته يعير ديوانه كل اهتمام ، حتى سرت قصائده في المشارق وفي المغارب مسرى الطيب ، فتأثر ببعضها شعراء الأندلس وعارضوها . وكانت قصيدته في رثاء صديقه أحمد بن علي البتي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ مسك الختام لعطائه الشعري الخلاق ، إذ توفي بعده بشهور تاركاً للأجيال قصائد قل نظيرها في عمارة الشعر الإنساني الخالد ، وديواناً من أنقى ما أبدعته الأمة العربية في ماضيها وحاضرها .

وقد اهتم ابنه عدنان بشعره ، فزاد عليه ما وجد من مسودات أبيه ، وما لبث أبو حكيم الخبري المتوفى سنة ٤٧٦ هـ أن رتب ديوان الشريف على الأغراض فجعل باباً للمديح وباباً للفخر وباباً للرثاء وباباً للنسيب وباباً للفنون

المختلفة ، ثم رتب القصائد في كل باب على القوافي متبعاً نظام حروف الهجاء ، وأنشأ من الأوراق المسودة التي وجدها عدنان بن الشريف باباً ألحقه بالديوان سماه باب الزيادات بعد أن ضم إليه أبياتاً وجدها ، ويبلغ تعداده ٩٣٥ بيتاً ، ويشتمل على أبيات مفردة ومقطوعات صغيرة .

وعمد الناس بعد أبي حكيم إلى ترتيب قصائد الديوان على القوافي حسب حروف الهجاء دون النظر إلى الأغراض ، ولجأ بعضهم إلى اختيار أغراض معينة من الديوان ورتبوها على القوافي . وقد أشار بروكلمان إلى ديوان الرضي ومخطوطاته في مختلف مكتبات العالم ، وإلى أقسامه المتفرقة وإلى الاختيارات المختلفة من شعره . وأورد محقق ديوان الرضي عبد الفتاح الحلو نسخ الديوان ومواضعها في المكتبات وأرقامها ووصف كل نسخة منها بدقة :

ففي مصر يوجد أربع نسخ في دار الكتب المصرية ونسختان في المكتبة الأزهرية بالقاهرة ، وفي سوريا ثلاث نسخ في المكتبة الظاهرية بدمشق كل منها برقم مختلف وتقع الأولى في ٢٦٥ ورقة والثانية في ٣٥٧ والثالثة في ١٤٩ ورقة ، وفي العراق نسختان ذكرتا في الكشاف عن مخطوطات خزائن كتب الأوقاف ، كتبت الأولى سنة ١٣٠٤ هـ والثانية سنة ١٢٨٥ هـ ، وهناك نسخة في فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف ببغداد كتبت سنة ١٢٢١ هـ ونسخة في فهرس مخطوطات حسن الأنكرلي نسخت سنة ١٣٠٤ هـ .

وفي السعودية نسختان في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة كتبت الأولى سنة ١٠١٠ هـ والثانية هي مختارات من شعر الشريف .

وفي المغرب يوجد ثلاث نسخ في الخزانة الملكية بالرباط ، وتشتمل الأولى على مختارات من شعر الشريف ، وتقتصر الثانية على الجزء الأول من الديوان .

أما في إيران فهناك ثلاث نسخ في مكتبة الإمام الرضا بخراسان ، تمثل الأولى الجزء الأول من الديوان وهي مرتبة على القوافي ، وتشتمل الثانية على الجزء الثاني من الديوان ، والثالثة على الديوان كله .

وفي مكتبة سبهسلار بطهران نسخة تشتمل على الجزء الأول مرتبة على القوافي ، كما يوجد نسخة في مكتبة مشهد ، ونسخة من الحجازيات في مكتبة ملي .

وفي الهند نسخة في الجمعية الآسيوية في كلكتا تشتمل على الحجازيات وهي مرتبة على القوافي ، ومؤرخة سنة ٦٣٣ هـ .

هذه هي مخطوطات ديوان الشريف .

إلى جانب ذلك فإن هذا الديوان قد طبع خمس مرات :

١ ـ في مطبعة نخبة الأخبار في الهند في جزء واحد مرتب على القوافي سنة ١٣٠٦ هـ .

٢ ـ في المطبعة الأدبية في بيروت من سنة ١٣٠٧ ـ ١٣١٠ هـ وفي جزءين يشتملان على ٩٨٦ ص ، طبع الجزء الأول وشرح ألفاظه أحمد عباس الأزهري ، وطبع محمد سليم اللبابيدي الجزء الثاني .

٣ ـ طبع في مصر وفي أربعةُ أجزاء مرتبة على الأغراض بخمسة أبواب حسب ترتيب الخبري .

٤ ـ في دار صادر ودار بيروت سنة ١٩٦١ م وفي جزءين يشتمل الأول على ٦٨٥ ص والثاني على ٦٠١ ص .

٥ ـ كما طبع ديوان الشريف طبعة حديثة في دار بيروت سنة ١٩٨١ م ، كما طبعت أجزاء منه ثلاث مرات :

١ ـ أخرج محمد محي الدين عبد الحميد الجزء الأول من الديوان عن دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م ، وانتهى منه إلى قافية الباء .

٢ ـ نشر دار الفكر في بيروت سنة ١٩٥٦ م ديوان الشريف بشرح وتحقيق الأستاذ كامل سليمان ، وفي جزءين صغيرين ، يشتمل الأول على ١٧٥ صفحة والثاني على ١٥٩ ص وهو مرتب على القوافي .

٣ ـ حقق الدكتور عبد الفتاح الحلو ديوان الرضي ـ صنعة أبي حكيم الخبري ورتبه على الأغراض ، ولم ينشر منه إلا الجزء الأول سنة ١٩٧٧ م ـ وذلك في دار

الطليعة بباريس سنة ١٩٧٧ ويقع في ٣٨٢ ص ، وينتهي عند قافية الدال من باب المديح .

ذلك هو ديوان الشريف مخطوطاً ومطبوعاً .

وحسب الرضي فخراً أن شعره ما زال وسيبقى خالداً تتناقله الأجيال .

وسنرى في دراستنا لأغراض الشعر عند الشريف عملاقاً لا يشق له غبار .

فن المدح

المدح فن شعري زخر به ديوان الشعر العربي . وأزهى أنواع المديح تلك التي تتناول القيم الروحية والخلقية والإنسانية في الممدوح ، وقد خرج كثير من الشعراء عن هذه الأطر ، فكرسوا مدحهم لخدمة الأطماع والميول والنزعات ، وجنحوا فيه إلى المبالغة ، حتى صار تكسبياً فأغرقته المادة في لججها ، وخرجت به عن المصداقية في القول والتعبير . ولم يكُ كل الشعراء على هذا المنوال ، فقد ترفع بعضهم عن هذا الصنيع ، وحفظوا لشعرهم الخلود ، بعد أن سموا به إلى ما يليق ، وأنفوا من الاستجداء والاستعطاف والتمرغ على أعتاب ذوي الشأن .

وكان الشريف على رأس هذه الطبقة من الشعراء ، فمدائحه ليست كسائر المدائح ، لأنه لم يكن يتكسب بشعره على غرار بعض الشعراء الذين كانوا يبيعون قصائدهم وبالتالي كراماتهم في بغداد . وإنما كانت مدائحه ـ كما يذكر زكي مبارك ـ شاهداً على اشتباكه في المعارك السياسية التي كانت

تثور في فارس وفي العراق ، فأكثر ممدوحيه كانوا يتذوقون الشعر والأدب والبلاغة ، وأكثرهم كانوا من الفتيان الأبطال الذين يعشقون جليل الصفات ، ولعل الشريف أنس بهم فمدحهم بغرر معانيه .

ومدائح الشريف تبلغ ثلث ديوانه ، وقد توزعت بين أسرته (والده وشقيقته وخاله) وبعض الخلفاء العباسيين وملوك بني بويه ووزرائهم ، علاوة على شيوخه وأصدقائه .

وحرص الشريف على مدح بعض أرباب السلطة لم يك رغبة في منفعة رخيصة ، وإنما كان هدفاً إلى خدمة وطنه الذي جار عليه الزمان آنذاك ، لذلك كان يخص بالمدح من يتوسم فيهم القدرة على إنصاف العراق ، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان في غنى عن هذا المديح ، لأن سلطته الروحية خولته مكانة علية حرص عليها معظم ذوي الشأن في القرن الرابع الهجري ، فكان الشريف أمير الحج ، ونقيب الطالبيين ، ووالي ديوان المظالم وهي مناصب تغنيه عن المديح بغية الكسب المادي ، فقد كان أولو الأمر بحاجة إلى أبي أحمد الموسوي وإلى وريثه في المناصب وابنه الشريف الرضي ، وذلك لنفوذهما ومكانتهما بين القبائل العربية التي كانت تسد الطريق إلى البيت الحرام ، إذ تشهد كتب التاريخ أن أهل العراق وأهل فارس وأهل خراسان انصرفوا عن الحج أعواماً بسبب الخوف من التعديات ، فكان وجود الموسوي وابنه من

بعده كفيلاً بوضع حد لهذا الوضع الشاذ ، إذ كانا ينالان من القبائل بالسلطة الروحية ما تعجز عنه السيوف .

وفي مخاطبة الشريف القادر دليل ساطع على أن مدحه لأولي الأمر لم يكن تكسبياً ، فهو يرى نفسه أحق الناس بالخلافة وأجدرهم بها :

عطفاً أمير المؤمنين فإننا
في دوحة العلياء لا نتفرقُ
ما بيننا يوم الفخارِ تفاوتٌ
أبداً كلانا في المعالي مُعْرِقُ
إلا الخلافةَ ميزتكُ فإنني
أنا عاطِلٌ عنها وأنت مُطَوَّقُ

وتتعدد الأغراض في قصيدة الرضي المدحية ، إذ نراها تشتمل بالإضافة إلى المديح على الوصف والفخر والحكمة والهجاء والنسيب .

وأروع قصائد المديح في ديوانه تلك التي تتناول شخصية والده . فقلما تمر مناسبة أو عيد إلا ومدحه بقصيدة من عيون الشعر ، إذ كان يراه مثله الأعلى تعلو مرتبته ومكانته منزلة الخلفاء ، بل هو أولى منهم بالملك والسلطان ، وقد مدحه بأكثر من ثلاثين قصيدة تعتبر قمة من قمم الشعر التي تربي الأخلاق البنيوية والأبوية .

ويمكننا أن نقسم هذه القصائد إلى ثلاث فئات :

الفئة الأولى في التوجع لأبيه وهو سجين ، إذ يمدحه ويظهر الألم الذي يكتنفه ويغمر فؤاده .

والفئة الثانية في تهنئة أبيه بالخلاص ورد أملاكه إليه ويبدو الشريف فيها مسروراً مبتسماً .

والفئة الثالثة في تهنئته بالأعياد .

ونظم الشريف وسنه فوق العشر بقليل أول قصيدة في التوجع لأبيه وقد مدحه وذكر مجلسه مع المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة حين قبض عليه وحمل إلى فارس حيث حبس في القلعة ، وقد استهل الشريف هذه القصيدة بالحكمة والوجدانيات ثم افتخر ومدح أباه وهجا الوزير البويهي ، والحقيقة أنه بدا من خلالها من فحول الشعراء ، إذ قلما يهب الزمان شاعراً طفلاً ينظم قصيدة من ثمانية وسبعين بيتاً دون أن نعثر فيها على خلل أو ضعف ، لقد شحذت المحنة عبقرية الشريف وأرهفت أحاسيسه وأمدت قسوة الأحداث هذا الطفل بعقل الكهول فانطلق يقول :

فدى لك يا مجدَ المعالِي وبأسَها
فعالُ جبانٍ شجعته الحقائدُ
عُزِلْتَ ولكن ما عُزِلْتَ عن الندى
وجُودُكَ في جِيدِ العُلى لك شَاهِدُ
بوجهِكَ ماءُ العز في العَزْلِ ذائِبٌ
ووجهُ الذي وُلِّي من الماء جَامِدُ

فلا يفرحِ الأعداءُ فالعزلُ مَعْرِضٌ
إذا راحَ عنه صادرٌ جاء وَارِدُ
وما كنت إلا السيفَ يمضي ذُبَابُهُ
ولا ينصر العلياء من لا يُجَالِدُ
نُضِي فقضى حَقَّ الضرائِب في الوغى
وأثنتْ عليه حين رُدَّ المغامدُ

فهو هنا يخاطب أباه ، إنه مجد المعالي وعزمها ، وآسره رعديد دفعته الأحقاد ، وهو وإن كان قد سجن إلا أنه لم يعزل عن الجود ، وإنما نداه نغمة على كل شفة ولسان ، وقلادة في جيد العلياء ، ثم يقابل الشاعر بين أبيه وبين سجّانه ، فوجه أبيه وجه العز والأمجاد ، ووجه آسره وجه الذل والهوان ، ثم ينطلق محذراً الأعداء بألا يفرحوا لأن الدنيا لا بد وأن تتغير وينقلب السحر على الساحر ، ويعود فيمدح أباه بالشجاعة والثبات والعزيمة ، إنه السيف البتار الذي أدى واجبه كاملاً في ساحات الوغى والجهاد وعاد إلى أغماده ميموناً مباركاً .

وبعد أن يهجو الشريف المطهر بنِ عبد الله ويهدده بالفاطميين يعود فيمدح أباه ، إنه حليم ملَّ من عليائه فاختار عزلها ، وهو رجل المحامد والخيرات ، شجاع تفتقده السيوف والرماح في أيام الشدة والبلاء ، ثم يذكِّر قيس بن عيلان به ، إنه رجل ماجد حوى المجد كله وجليل لا يقاس به أحد ، وحده جيوش تنقض عليهم ، وسيف يحتوي كل ما لهم من سيوف ، وتشهد على شجاعته الخارقة موقعته مع بني عويث

على طريق مكة يوم برقت السيوف وخيم شبح الموت وكان النصر في النهاية حليفه إذ انهزم أعداؤه والسيوف في ظهورهم والموت لا يرتد عنهم :

ألا إن جدبَ الحلم عندك مخصبُ
وإن لئيمَ المجدِ عندك رَافِدُ
ضجرتَ من العلياءِ فاخترْتَ عزلَها
كأنك قد أفْنَتْ نَداك المحامِدُ
ستذكركَ الأرماحُ وهي قواربٌ
وليس لها إلا القُلوبُ مواردُ [1]
حوى المجدَ يا قيسَ بنَ عَيلان ماجدٌ
وجلَّ فما يُلْقَى له فيه حاسد
فتى يحتوي أرماحَكُمْ وهو صارمٌ
وَيُسْري جيوشاً نحوكم وهو واحد
ويوم عُوَيْثٍ والسيوفُ بَوارِقٌ
تظل المنَايَا والقِسِيُّ روَاعِدُ
رَدَدْتَهُم والسمرُ بين ظهورِهِمْ
تُعَقِّل فيه الموتَ ، والموتُ شَارِدُ [2]

ثم يشير الشريف إلى مناصب أبيه، فقد حمى طريق الحج

(١) القوارب : واحدها قارب : طالب الماء ليلاً . وهنا أراد الرماح الطالبة شرب الدم .
(٢) تعقل : تشد وتربط .

يوم كانت محفوفة بالمخاطر ، واحتل ديوان المظالم حيث كان ينظر في قضايا الناس ومشاكلهم ، وولي نقابة الطالبيين ، إنها أرفع الرتب وأسماها ، ويتمنى في النهاية أن تعود إليه أيام السرور والرفاهية والسعد وأن يعيد عليه ليالي المجد والعزة والسؤدد :

حمى الحجَّ واحتلَّ المظالِمَ رُتْبَةً
على أن رَيْعَانَ النقابةِ زَائِدُ
أعاد إليه اللهُ ماضي سرورِهِ
ورَدَّ الليالي وهي بيضٌ أماجِدُ

ويبتهج الشاعر لخلاص أبيه من السجن فيستقبله بقصيدة عصماء من جياد قصائده نذكر منها :

طلوعٌ هداهُ إلينا المغيبُ
ويوم تَمَزَّقُ عنه الخطوبُ
لَقيتُكَ في صدرِه شَاحِباً
ومن حلية العربي الشحوبُ
إليه تَمُجُّ النفوسَ الصدورُ
وفيه تهني العيونَ القلوبُ
لحا اللهُ يوماً أرانا الديا
رَ يندبُ فيها البعيدَ القريبُ
وما كان موتاً ولكنه
فِرَاقٌ تُشَقُّ عليه الجيوب

رحلتَ وفي كل جَفْنٍ دمٌ
عليك وفي كل قلْبٍ وجيبُ
أما علم الحاسدُ المستغرُّ
أن الزمانَ عليه رَقِيبُ

ها هوذا البدر يطلع بعد طوال الاحتجاب ، فتتمزق في يوم الخلاص الشدائد ، ويرى الشاعر أباه في بغداد سنة ٣٧٦ هـ شاحب اللون هزيل الجسم ، فتخفق في الصدور القلوب، وتتعانق العيون والقلوب ، ويوم الاعتقال كان يوم حزن وأسى ، ترك في كل جفن دماً وفي كل قلب حزناً ومرارة ، ولكن فليعلم الحاسد المغتر أن الزمان عليه رقيب .

بعد ذلك يهنىء الشاعر أباه بالقدوم :

قدمتَ قدومَ رِقَاقِ السحا
بِ تَخُطُّ والربعُ رَبْعٌ جَدِيبُ
فما ضحكَ الدهرُ إلا إليك
مذ بانَ في حاجبيهِ القطُوبُ
وما زال منك على النائباتِ
مقامٌ عظيمٌ ويومٌ عصيبُ
فيومٌ حسامكَ فيه الخطيبُ
ويومٌ لسانُكَ فيه الخطيب
على أنه أنتَ عينُ الزمانِ
وعيشٌ بلا ناظرٍ لا يطيب

ولـولاكَ مـا لَـذَّ طعـمُ الـفـخـارِ
ولا راقَ بـردُ الـعـلاءِ الـقـشـيـب
أتـرضـى لـمـجـدكَ أن لا يـكـون
لنـا من عَـطايـا المعـالِي نَصِـيب
فـلا يـقـعـدنَّـكَ كـيـدُ الـحـسـو
دِ وانـهـضْ فـكـلُّ مـرامٍ قَـريـب
وَحُـثَّ الـطِّلاَبَ فـإنـا نَـجُـدٍ
وامضِ الأمـورَ فـإنـا نـتُـوب
ولِـمْ لا يـضـيـفُ الـعُـلَى مـنْ لـه
غـديـرٌ مـعـينٌ ومـرعـى خـصـيـب

إنه قدوم سعد ، كالسحاب الماطر العذب على الربع الجديب الجاف . والدهر مذ أعلن الحزن على غياب الموسوي لم يضحك إلا إليه يوم عاد ، ويطوف الشريف في عالم بنيوي مرهف ، فيه كل الإخلاص والحب ، بعبارات متراصة جميلة ، تكشف عن طول باعه في اللغة ، فأبوه لكل معضلة وملمة ، إنه رجل المهمات الصعبة ، وسيد المعالي والأمجاد ، فارس شجاع وبليغ مفوه ، لولاه ما كان الفخار ، ولا زها ثوب العلاء القشيب ، ثم يحث الشريف أباه على استئناف دوره متمنياً أن يكون إلى جانبه وأن يهبه بعض معاليه لأنه جدير بها إذ خصب مرعاه وأزهر عمره ونما جسمه واكتمل عقله بعد أن كان طفلاً عندما تركه أبوه ، لذلك فهو يقدم له جني فؤاده الحزين ، قصائد جميلات تخلد مناقبه وأعماله

وسيجد فيها الروعة ودقة النظم وحسن الأداء يوم تنثرها شفاه الرواة كما ذكر الشريف في نهاية القصيدة :

لمحياك مني عند اللقاء
خلق عجيب وخلق أديب
وخلفتني غرس مستثمر
فطال وأورق ذاك القضيب
ذخرت لك الغرر السائرات
يعبر عنها الفؤاد الكئيب
تصونُ مناقِبَك الشارداتِ
أن تتخطى إليها العيوب
إذا نَثرتْهَا شِفَاهُ الروا
ةِ راقَكَ منها النظامُ العجيب

ولما عادت مناصب الموسوي الرسمية إليه سنة ٣٨٠ هـ وبعد سنوات من إطلاق سراحه وعودته إلى بغداد اهتز الشريف طرباً ورقصت أخيلة الشعر في خواطره فنظم قصيدة من أجمل ما أبدعته مواهب الشعراء :

أنظر إلى الأيام كيف تعودُ
وإلى المعالي الغُرِّ كيف تَزِيدُ
وإلى الزمانِ نَبا وأورقَ عطفهُ
فارتاح ظمآنٌ ، وأورقَ عودُ
قد عاودَ الأيامَ ماءُ شبَابِهَا
فالعيشُ غضٌ والليالي عيدُ

إقبالُ عِزٍّ كالأسنةِ مُقْبِلٌ
يمضي وجَدٌّ في العلاء جَدِيدُ
وعُلى لأبلجَ من ذُؤابَةِ هَاشِمٍ
يُثْنِي عليه السؤددُ المعقود

فالشريف هنا يمدح أباه ويهنئه برد أعماله القديمة إليه ، ويظهر انعكاس أوبته وأثرها على المعالي والأمجاد ، فقد عادت أيام السعد وزهت واخضر الزمن وارتاح العطاشى إلى عودة البهجة والسرور ، فنعم الإقبال إقبال الموسوي ، ونعم الأبلج سليل الأطهار يباركه السؤدد ويثني عليه .

ثم يكمل الشاعر متحدثاً عن عودة مناصب أبيه ، فقد أطلقت بهذه المناسبة النصول وازدهى البيت الحرام وعاد إليه جماله وإشراقه بعودة أميره ، وآبت الهمة العلية الواعية لتحتضن نقابة الطالبيين وولاية ديوان المظالم ، ويحمد الشريف أباه الموسوي على ما أنعم عليه من سؤدد ومجد حتى صار جديراً بكل معضلة مما أقلق أعداءه ومبغضيه فكادوا يموتون غيظاً وكمداً ، ثم يعلن أنه سيشكره قدر ما يستطيع بقصائد وكلمات تصعق الأعداء :

الآن أطلقتِ النصولُ وَرُشِّحَتْ
لسبيلها قُبُّ الأياطِلِ قُودُ
وتبلجَ البيتُ الحرامُ طلاقةً
مذ قيل : إن جمالَه مردُود

وعلى المظالمِ والنقابةِ همةٌ
يَقْظى وظِلُّ أمانَةٍ ممدود
حَمْداً لأنعمك الجسامِ فلم يَزَلْ
أبداً يزيدُ لها علي مَزِيدُ
عَليتني حتى تحققت العِدَى
أني حميمٌ للعلى وعَقِيدُ
وتركْتَ حسَادِي على زفراتهم
عُوجَ الضلوعِ فواجدٌ وعَمِيد
فلأشكرنَّك ما تجاذبَ مِقْوَلِي
نثرٌ يشق على العِدى وقَصِيد
والشكرُ أنفسُ ما وجدتُ وإنما
أملُ الفتى أن يُقْبَلَ الموجودُ

أما الفئة الثالثة من مدائح الشريف لأبيه فإنها تتناول تهنئته بالأعياد والمناسبات الدينية ، فكان يمدحه في كل عيد ويخلع عليه رداء الملوك ، إذ كان يراه خليقاً بكل فخار ، ومن ذلك قصيدة طويلة هنأه فيها بعيد الفطر السعيد سنة ٣٨١ هـ وفيها يقول :

أحاسد ذا الضرغام دونك فاجتنب
بوادر مقدام الجنان محامي
حذارك من ليث ترى حول غيله
سواقط أيدٍ للرجال وهام

لــه العـدوة الأولى التي تحــطم القنـا
وتــجـلي الأعــادي كــل يــوم مــقــام

هنيئـاً لـك العيـد الجديـد ولا تـزل
تــخــلص مــن عــام يــمــر وعــام

تلثمتُ من مقـل العفـاف عن الهـوى
نــجــاءً مــن الــدنــيـا أعــز لــثــام

وخــالفت في ذا الصـوم سنــة معشـر
صــيــام عــن الــعــوراء غــيــر صــيــام

فهو هنا يمدح أباه ذلك الليث المقدام الشجاع ، محطم الرماح وهازم الأعداء ، ثم يرفع إليه تهنئته القلبية بمناسبة العيد الجديد متمنياً أن تبقى كل الأعياد خالدة في داره ، فهو مثال الطهر والعفاف ، أدى واجبه كاملاً في شهر الصوم في حين قضاه آخرون بالموبقات والشرور .

وننتقل الآن إلى مدح الخلفاء ، وسنقتصر على الإشارة إلى مدح الطائع ، علماً أن مدائحه لهذا الخليفة لم تبدأ إلا بعد أن اطمأن على خلاص أبيه من الاعتقال ، ويبدو أن الشريف أنس كل الأنس بالطائع فكان يمدحه بإخلاص ، رغم أن الكثيرين يشكون في صدق عواطفه نحو هذا الخليفة ، وقد بلغت مدائحه فيه خمس عشرة قصيدة ، ومنها قصيدة ميمية جميلة تأثر بها الطائع كثيراً ورق لها وذلك سنة ٣٨٠ هـ :

مــتــى أنــا قــائـمٌ أعــلا مَقَـامِ
ولاَقٍ نُــورَ وجــهــك بــالــســلامِ

ومُنْصَرِفٌ وقد أثقلتَ عِطفي
من النعماءِ والمِنَنِ الجِسَامِ [1]
لكم أرجاءُ زمزمَ والمُصَلى
وبطحاء المشاعِر والمَقامِ
وأنتم أطولُ العظماءِ طولاً
وأندى في المحُولِ من الغمامِ
وأبعد موطناً من كل عَارٍ
وأمْنَعُ جانباً من كُل ذَامِ
وأجرى عند مختلَفِ العَوالِي
وأفْلَجُ عند مُعْتَرَكِ الخِصَامِ
الآنَ جذبْتَ من أيدي الليالي
عِنَانِي واشتملت على زِمَامي
فما أخشى الزمانَ ولو تلاقت
يداهُ من ورائي أو أمامي

ويبدو من خلال هذه الأبيات أن الشريف كان ينتظر اليوم الذي يجتمع فيه بالطائع بفارغ الصبر ، ليحظى بأعلى مقام وينصرف بالمنح والخيرات ، فهو الخليفة الذي مد ظله نحو بيت الله الحرام ، وهو أسخى من الماء الماطر وأسمى من العظماء ، بعيد عن مواطن العار لا يذم جانبه ولا يهزم في المعارك والشدائد ، وكانت هذه الصفات كافية لأن تسحر

---

(١) المنن : الواحدة منة ـ الإحسان .

الشريف بشخصية هذا الخليفة الذي أنقذه مما هو فيه حتى أصبح لا يخشى عواقب الزمان ، وواضح كم في هذه الأبيات من مبالغة وتضخيم .

وقد تركت هذه القصيدة صدى رائعاً وحسناً في نفس الطائع فأمر بأن يسير الشريف إلى داره يوم الخميس من شهر رمضان المبارك سنة ٣٨٠ هـ ، وجلس له جلوساً خاصاً وأوصله وأخاه ، وكانت الخلع السود قد أعدت له ، فجلببت عليه ، ثم زاد في إعظامه وتناهى في إكرامه ورتبه أبيه وهي أجل المراتب في مجلسه ، وقلده النقابة وخلع عليه ويظهر ذلك في قوله :

يا من له الرأيُ الزنيـ
قُ ومن له الحِلْمُ الرزين [1]

لك ذُرْوَةُ البيت المعظم
والأباطحُ والحَجُونُ [2]

أتُرَى أمينُ اللهِ إلا
من لهُ البلدُ الأمين

والأمرُ أمْرُكَ لا فَمٌ
يُوحي ولا قَوْلٌ يُبِينُ

لما رأيْتُكَ في مقام
يُسْتَطَارُ به الركين

---

(١) الزنيق : المحكم .
(٢) الأباطح : بطاح مكة ـ الحجون : جبل بمكة .

ورأيــتُ لــيــثَ الــغــابِ مــعـ
تَــرِضــاً لــه الــدنــيــا عــريــن
أقــدمــتُ إقــدامَ الــذي
يــدنُــو وشــافِــعُــهُ مــكــيــن
فَــلذاك مــا ارتــعــدَ الــجــنَــا
نُ حَــيــاً ولا عَــرِقَ الــجــبــيــن
وامــتــد مــن نُــورِ الــنــبــي
عــلــيــكَ عُــنْــوَانٌ مُــبِــيــنُ
وجــمــالُ وجْــهِــكَ لــي بِــنَــيْــ
لِ جــمــيــعِ مــا أرجُــو ضــمــيــنُ
فــأُفِــيــضَــتِ الــخِــلَــعُ الــســوا
دُ عــلــيَّ تــرشُــقُــهَــا الــعُــيــون
وخــرجــتُ أسْــحَــبُــهَــا ولــي
فــوق الــعُــلا والــنــجــمُ دُون
جَــذِلاً ولــلــحُــسَّــادِ مــن
أسَــفٍ زَفِــيــرٌ أو أنــيــن

وواضح كم في هذه الأبيات من إكبار للطائع ، فهو ذو الرأي المحكم ، حليم تعنو لسلطته مكة وبطحاؤها ، صاحب الكلمة الفصل في كل شيء ، وانظروا إلى هذه الصورة الجميلة التي جعل فيها الشاعر الطائع أسداً عرينه الكون بأسره ، تدليلاً على سعة ملكه وامتداد سلطانه ، وفي هذا العرين وقف الشريف شجاعاً لم يرتعد جنانه ، وقد غمر الطائع

نور نبوي ، وشع وجهه بجمال طابت له نفس الشريف ، فأغدقت الخلع النفيسة عليه وقد نهبتها العيون ، وخرج جذلاً بما جناه من مجد وسؤدد ، وقد أسقط في يد حاسديه وامتلكهم ألم كبير .

أما مدح الملوك البويهيين فكان جله في بهاء الدولة ، ذلك لأن علاقة الشريف به كانت متينة واستمرت مدة عشرين سنة ، وقد مدحه بست وعشرين قصيدة . وكان للشريف ذوق لطيف في التمييز بين مقامات الخلفاء ومقامات الملوك ، إذ كان ينشد الخلفاء شعره بنفسه ، أما الملوك فكان يكتفي بإرسال القصائد إليهم ، ولنعد إلى بهاء الدولة فنذكر أنه كان يتذوق الأدب الرفيع وشاهد ذلك أن الشريف كان يداعبه بالشعر فيرسل إليه القصائد .

واسمعوا هذه القصيدة الجزلة الرنانة الرائعة في مدح الملك البويهي :

لا زعزعتك الخطوب يا جبلُ
وبالعِدا حَلَّ لا بك العِلَلُ

قد يُوعَكُ الليثُ لا لِذِلَّتِهِ
على الليالي وَيَسْلَمُ الوَعِلُ

لا طرقَ الداءُ من بصحته
يَصِحُّ منا الرجاءُ والأمل

النجمُ يخفى وأنت مُتَّضِحٌ
والشمسُ تخبو وأنت مُشْتَعِلُ

باقٍ تخطاك كُلُّ نَائِبَةٍ
إلى العِدا والنوازلُ العُضُلُ

فما يقُولُ الأعداءُ لا بَلَغوا السؤ
لَ ولا أدركُوا الذي أمَلُوا

بنا الأذى لا بكم إذا نزل الـ
خطبُ طَرُوقاً وصَمَّمَ الأجَلُ

ودُمْتُمُ للعلى وَعَيْشُكُمُ
غَضٌ وَرَاوُوق عِزِّكُمْ خَضِلُ

لا عَجَبٌ أن نقيكُمُ حَذَراً
نحنُ جُفُونٌ وأنتمُ مُقَلُ

فالشريف هنا يتمنى ألا تصيب الشدائد هذا الجبل الأشم عالي الرتب ، ولتحل العلل بأعدائه وحاسديه ، وهو الليث الشجاع ، ومناط الأمل والرجاء ، علم بين الناس تخفي أنواره نور النجم وضياء الشمس ، باق رغم الأعداء ، ويتمنى الشاعر أخيراً أن يدوم بهاء الدولة للعلى وأن يخضر عزه ويطيب عيشه ، ولذلك فهو يحرص على أن يقيه ويدفع عنه الأذى ما استطاع .

وفي مدح الشريف لأصدقائه نتناول قصيدته في مدح أستاذه عثمان بن جني وقد شكره فيها على تفسير قصيدته الرائية التي رثى بها أبا طاهر بن ناصر الدولة الحمداني سنة ٣٨٢ هـ ، وفيها يقول :

فِـدى لأبي الفتـحِ الأفـاضـلُ إنــه
يِـبـر عـلـيـهـم إن أَرَمَّ وقـالا [1]
إذا جَـرَتِ الآدابُ جـاء أمـامـهـا
تَـرِيعـاً وجـاء الـطالبُـونَ إفَـالا [2]
فتى مستعادُ القَوْلِ حُسْناً ولم يكن
يَـقُـول مُـحَـالاً أو يُـحِـيـلُ مقـالا
ليَقـرِيَ أسمـاعَ الـرجـالَ فصـاحـةً
ويُـوردَ أفـهـامَ الـعـقـولِ زُلالا
وَيُجْـرِي لنـا عـذبـاً نميـراً وبعضُهُم
إذا قـال أجـرى لـلـمسـامِعِ آلا
أَسَـفُّـهُـمُ إن مُـيِّـزَ الـقـومُ خِـلَّةً
وأثـقَـبُـهُـمْ يـومَ الـجِـدال نِـصَـالا
ومـا كـان إلا السيفَ أطلقَ عَـزْبَـه
وزادَ غِـرَارِيْ مَـضْـرِبَـيْـهِ صِـقَـالا
ولـمـا رأيـتُ الـوفْـرَ دون مَـحَـلِّه
جَـزاءً وقـد أسـدى يـداً وأنَـالا
بعثتُ لـه وفْـراً من الشعـر بـاقيـاً
وكنـزاً من الحمـدِ الجـزيـلِ ومَـالا

فابن جني أديب لغوي ، يحسن إلى أفاضل الناس في

---

(١) يبر : يحسن ـ ارم : سكت .

(٢) القريع : فحل الإبل ـ الأفال : الواحد أفيل ـ الفصيل .

حالتي سكوته ونطقه ، وهو سيد الآداب وأستاذها القدير ، أما طالبو العلم والأدب فهم تلامذة صغار ، ما زالوا في مستهل حياتهم الفكرية .

وابن جني فصيح بليغ ، إنه يرهف الأسماع بفصاحته ويصقل أفهام العقول ، ويغذيها من مورده العذب الزلال ، فحديثه صاف نمير وحديث غيره سراب ، وهو أحدّ القومِ نظراً ، وأمضاهم يوم الجدال سيفاً ، وأظهرهم حجة ودليلاً ومنطقاً . والشريف رأس الوفاء ، فقد أسدى إليه أستاذه خدمات جلى ، لذلك انطلق الشريف يبعث إليه بآيات الشكر الجزيل والحمد والمال وبقصائد خالدات تجعله أغنية على شفة الدهر .

بهذا نكون قد انتهينا من دراسة فن المديح ، وقد بدا من خلال ما تقدم أن الشريف ركز في مدحه على المعاني الخلقية في الإنسان كالشجاعة والكرم والإباء والنخوة والنجدة والفروسية والسماحة والعدل .

فن الرثاء

فن الرثاء هو مدح الميت وتعداد مآثره وأعماله وصفاته ، وأسمى معاني الرثاء تلك التي تشتمل على المناقب الحميدة والصفات الخلقية من كرم وإباء ومروءة وأمانة واستقامة .

وقد عرف العرب هذا الفن منذ جاهليتهم ، وقلما نجد شاعراً منهم أغفله أو استغنى عنه . ومن الرثاء ما يكون متفجعاً حزيناً يثير المشاعر والأحاسيس ، ومنه ما يكون واعظاً موجهاً مستسلماً لحكمة الله وسنة الوجود ، أو حماسياً ثائراً يلهب النفوس ، وقد عاب العرب في الجاهلية رثاء قتلى الحروب ، واعتبروا أن الموت في ساح الوغى استشهاد يوجب الفرح والابتهاج . وقد تطور هذا الفن عبر العصور فاتسعت معانيه وصوره وأخيلته ، وقد تأثر كغيره من الفنون بمستجدات كل عصر وظروفه وأحداثه .

وكان العصر العباسي من أغنى العصور العربية بالشعر عامة وبالرثاء خاصة ، والشريف الرضي من شعراء الرثاء المفلقين ، وقصائده في الديوان تضعه في المرتبة الأولى بين

الشعراء في هذا المضمار ، إذ ليس في شعراء ذلك العصر أحسن تصرفاً منه في المراثي على حد قول الثعالبي في يتيمة الدهر ، وقد لعبت الظروف والأحداث التي واجهت الشريف دورها في صبغ مراثيه بصبغة الحزن والألم والمرارة . فقد بكى آل البيت بعيون الشعر ، ورثى أباه وأمه بفيض من مشاعر البنوة الصادقة ، وانطلق يبكي أقاربه وأصدقاءه بدافع المروءة والوفاء حتى بعد الموت ، كما أنه رثى الملوك والرؤساء ، فقد بلغت قصائده في هذا المضمار إحدى وثمانين قصيدة ومقطوعة .

ـ **رثاء أهل البيت** : شكلت عاشوراء وما جرى فيها على الحسين محور هذا الرثاء ، وقد رثى سبط الرسول بخمس قصائد من روائع الشعر ، تحدث في معظمها عن معركة كربلاء وصور أحداثها وكشف عما يعانيه هو من ألم ومرارة . وقد اخترت منها قصيدة لامية تقع في الجزء الثاني من الديوان ، أجمل فيها الشاعر مأساة كربلاء ، وقد استهلها بآراء فلسفية تتناول الحياة والفناء ، فالموت مصير كل الناس ، حيث يذهبون ولا تبقى سوى أطلالهم الدارسة :

راحل أنت والليالي نزول
ومضرّ بك البقاء الطويلُ
لا شجاعٌ يبقى فيعتنقُ
البيضَ ولا آمِلٌ ولا مأمولُ
غايةُ الناس في الزمان فناءٌ
وكذا غايةُ الغصونِ الذبولُ

ثم ينتقل الشريف إلى الحديث عن الحسين في ساحة كربلاء :

أيُّ يوم أدمى المدامعَ فيه
حادث رائع وخطب جليلُ

يومُ عاشوراءَ الذي لا أعان
الصحبُ فيه ولا أجارَ القبيلُ

يا بن بنت الرسول ضيعت العهد
رجالٌ والحافظون قليلُ

ما أطاعوا النبي فيك وقد ما
لت بأرماحهم إليك الذحول

يا حساماً فلت مضاربُهُ الهامَ
وقد فلَّهُ الحسامُ الصقيل

يا جواداً أدمى الجواد من
الطعن وولى ونحرُهُ مبلولُ

فذكرى عاشوراء حادث مفجع وخطب فادح يدمي النواظر ، يوم كان الحسين وحيداً في ساحة القتال بعد أن خذله أصحابه وتخلوا عنه ، والحسين في المعركة من أشجع الرجال ، كم فل من الهامات ، وكم صرع من الرجال حتى تحجل جواده بالدماء.

ثم ينتقل الشاعر مناجياً سبط الرسول في استدارة وجدانية عميقة ، فلم يعد يلذه الماء والحسين قضى عطشاناً ، ولا يدري كيف يصون وجهه وقد وطئت الخيل وجه أبي عبد الله ،

بعد أن اخترقت الرماح ثغره وغطت النصال نحره الشريف . ثم يشير الشاعر إلى نساء الحسين وهن سبايا ، وقد امتطين النجائب باكيات معولات مناديات ، وإن كن قد سلبن الأقنعة ، فلهن من وقار الوجوه ومهابتها خير بديل :

أتُراني أعيرُ وجهي صوناً
وعلى وجهه تجولُ الخيول

أتراني ألذُّ ماءً ولما
يروِ من مهجة الإمام الغليل

قبلته الرماحُ وانتضلَتْ فيه
المنايا وعانقتهُ النصول

والسبايا على النجائبِ تُسْتَاقُ
وقد نالت الجيوبَ الذبول

قد سلبن القناعَ عن كل وجهٍ
فيه للصونِ من قِنَاعٍ بَدِيلُ

وتنقَّبْنَ بالأناملِ والدمعِ
على كل ذي نِقابٍ دليل

وتشاكين والشكاةُ بكاءٌ
وتنادين والنداءُ عويل

ثم ينادي الشاعر غريب الديار وقتيل الأعداء الحسين بن علي ، بأسلوب يفيض ألماً وحزناً ، وينقل إليه ما يتفاعل في كيانه ، فهو لا يعرف النوم يدفعه إلى السبط شوق كبير ، ويستعيد ذكرى عاشوراء بلوعة وأسى ، ويتمنى لو كان ضجيع

قبره أو لو أن دمعه الغزير قد جُبل بثراه :

يا غريب الديار صبري غريبٌ
وقتيلُ الأعداء نومي قليلُ

بي نزاعٌ يطغى إليك وشوقٌ
وغرام وزفرة وعويل

ليت أني ضجيعُ قبرِكَ أو أنَّ
ثراهُ بمدمعي مطلولُ

ثم أخذ يتساءل ، إلام تبقى السنان غائبة عن الطعان ، والجياد مربوطة عن النضال ، وهو بذلك يدعو إلى الأخذ بالثأر وإعادة الحق إلى نصابه ، وإزالة حكم الطغاة وهو يتمنى لو يبقيه الله لينتقم من الظالمين بسيف مسلول يخترق فيه الصفوف :

يا بني أحمدٍ إلى كم سِنَاني
غائبٌ عن طِعانِه ممطولُ

وجيادي مربوطةٌ والمطايا
ومَقَامي يروعُ عنه الدخيل

كم إلى كم تعلو الطغاةُ وكم
يحكمُ في كل فاضل مفضول

ليت أني أبقى فأمترقَ الناسَ
وفي الكف صارمٌ مسلول

وأجُرَّ القنا لثاراتِ يوم الـ
ـطف يستلحقُ الرعيلَ الرعيلُ

وهكذا كان الشريف في هذه القصيدة كما في سائر قصائد عاشوراء ثائراً مهدداً متوعداً حزيناً متألماً .

أما رثاؤه لأهله فقد عمر بالمحبة والوفاء والإجلال والتفجع ، وقد تركت وفاة والده أثراً بعيداً في نفسه إذ كان يقدره كل التقدير ، لذلك رثاه بقصيدة عصماء طفق يعدد فيها مناقبه ومزاياه ، فاستسقى في مطلعها على قبره الغمام ثم تحدث عن مشاعره الفياضة وعما حل به بعد رحيل والده ، فهو يعجب من المتبسم بعد أن كان يلوم الباكين ، لذلك أخذ على نفسه عهداً بألا يكفكف دموعه حتى ولو كانت دماً :

وسمتك حاليةُ الربيع المرهِم
وسقتك ساقيةُ الغمام المُرْزِمِ [١]

قد كنت أعذُلُ قبل موتك من بَكى
فاليوم لي عجبٌ من المتبسمِ [٢]

وأذودُ دمعي أن يَبُلَّ محاجري
فاليومَ أُعلِمُه بما لم يَعْلَمِ

لا قلتُ بعدك للمدامع كفكِفي
من عَبرَةٍ ولو أن دمعي من دمي

ثم يتابع الشاعر فيرى والده سيفاً مهنداً أغمد في الثرى وجبالاً شاهقة دفنت في التراب ، تبدو شامخات العلى هزيلة

---

(١) المرهم : المخصب ـ والمرزم : الرعد الشديد صوته .

(٢) أعذل : ألوم .

أمام علاه ، وهو غاية في الكرم يهب النعم الكبيرة دون تردد ، شجاع في ساحة الوغى ، يرد ألوية القنا بعد المعارك مضمخة بالدماء من كثرة ما تشرب من نجيع الأعداء . وهكذا عمت فضائله البلاد وتحدث بها كل الناس . ومجده ظاهر للعيان ، وشامة في خد الزمان :

اليـوم أغمـدتُ المهنـدَ في الثـرى
ودفـنـتُ هَـضْـبَ مُـتَـالِـعٍ ويَلَمـلَـم [1]

وغـدت عـرانـينُ الـعُـلى وأكُـنُـهَـا
من بين أجـدَعَ بعـدَهُ أو أجـذَمِ [2]

مُـتـبـلجٌ كـرمـاً إذا سُـئِـل الـجـدا
مَـطرَ الـنـدى أَمَـمـاً ولـم يـتـغـيـم

الـواهِـبَ الـنَّـعَـمَ الـجَـراجِـرَ عـادة
من ذي يدين إذا سخا لم ينـدَمِ [3]

بـيـديْ أغـرَّ يـرد ألـويـةَ الـقـنـا
غِبَّ الـوقـائـعِ يُعْتَصـرن مِنَ الـدم

مـلأت فـضـائِلُكَ الـبـلاد ونـقَّـبَـتْ
في الأرض يقذفها الخبير إلى العمي

فكـأن مجـدك بـارقٌ فـي مـزنـة
قـبـل الـعـيـون وغُـرةٌ فـي أدهـم

---

(١) متالع ويلملم : جبلان .

(٢) الأجدع : المقطوع الأنف ـ والأجذم : المقطوع اليد .

(٣) النعم : الإبل ـ الجراجر : الضخام منها .

أما رثاؤه لوالدته سنة ٣٨٥ هـ فقد كان عميقاً مؤثراً ، وقصيدته فيها جزلة قوية السبك ، حافلة بالصور الرائعة والحية ، وقد سكب فيها عصارة قلبه وأسمى مشاعره وأحاسيسه، فهو حائر ملتاع متفجع، يتمنى لو ينفعه البكاء أو القول أو التصبر ، ولكنه يعلم أن كل ذلك لا يعيد مفقوداً أو يرد ميتاً .

ولو أمكن دفع الحمام عنها بالقوة ، لتحلق حوله جنود أشداء تمرسوا بأساليب القتال وتفيأوا ظل الرماح وأعدوا لأيام المواجهة واللقاء ، ولكن أنى له ذلك والموت نهاية كل مخلوق :

أبكيكِ لو نَقَعَ الغليلَ بُكائِي
وأقولُ لو ذهبَ المقالُ بدائي [1]
وأعوذُ بالصبرِ الجميل تعزياً
لو كان بالصبر الجميل عزائي
طوراً تكاثُرُنِي الدموعُ وتارة
آوي إلى أكرُومتي وحيَائي
كم عبرةٍ موهتُها بأناملي
وسترتُها متجملاً بردائي
ما كنت أذْخَرُ في فداك رغِيبَةً
لو كان يرجع ميتٌ بفداءِ

---

(١) نقع الظمأ : أرواه ـ الغليل : حرارة الحزن .

لــو كــان يُــدْفَـعُ ذا الحمــامُ بقـوة
لـتـكــدســتْ عـصــبٌ وراءَ لــوائـي
بــمــدربيـنٍ عـلى الـقــراعِ تـفـيــأوا
ظِــلَّ الــرمــاحِ لـكُــل يــوم لقــاء

وتبقى النزعة الوجدانية المتفجعة ماثلة في القصيدة ، فيكرر الشاعر في أبيات تالية ما سبق أن ذكرناه ، وهذا عائد إلى عمق الفجيعة التي مني بها الشاعر وفداحة الخسارة التي ألمت به ، ثم يتحدث بعد ذلك عن مناقب أمه ومزاياها الحميدة ، فقد جمَّلت حياتها بالعفة والزهد ، حتى انتقلت إلى بارئها طاهرة نقية ، بعد أن كانت تصوم يوم الحر اللاهب ، وتقضي لياليها متعبدة خاشعة ، وليس بالخاسر من اشترى جنة الله بطاعته وعبادته ، ولو كانت كل الأمهات مثلها ، لاستغنى بهن الأبناء عن الآباء . والشاعر لا يستطيع أن ينسى أطياف أمه ، فأفضالها ينطق بها كل مكان ، وأفعالها الخيرة تقر ناظريه وتدفعه إلى البكاء ، وهو يراها خالدة باقية ، لأن من يقضي عمره بالصالحات يعتبر من الأحياء :

أنـضـيـتِ عـيــشـك عِـفَّــةً وزهَــادةً
وطــرحــتِ مــثـقــلةً مــن الأعــبــاءِ
بصيــامِ يــومِ القيظِ تلهب شمســهُ
وقــيــامِ طــولِ الــلـيـلةِ الــلـيــلاء .
مــا كــان يـومــاً بـالغبينِ من اشتــرى
رغــدَ الـجـنــانِ بـعـيـشــةٍ خـشــنــاء

لو كان مثلُكِ كُلُّ أمٍّ برةٍ
غنيَ البنونُ بها عن الآباء
كيف السلُو وكُل موقعِ لحظةٍ
أثَرٌ لفضلكِ خالدٌ بإزائي
فعلاتُ معروفٍ تُقر نواظري
فتكون أجلبَ جالبٍ لبكائي
مامات من نزعَ البقاء وذكرهُ
بالصالحات يُعد في الأحياء

وهكذا تعصف بالشاعر أحزان مريرة ، إنه فقد الأمومة الحقة والعطف النبيل ، ولذلك يبدو كالضائع في بحر هذه الفاجعة ، فقد حرم من دعاء أمه له بالتوفيق في مواجهة النكبات وفقد بفقدها المعين والمطبب والساهر والمدافع ، ويتساءل بمرارة عمن يرخي عليه ستر الدعاء ليتجنب به الضراء والبأساء .

ويبلغ التفجع بالشاعر مداه ، فيرى بأنه مني برزءين لا يبرحان عنه ، موت والدته وبقاؤه على قيد الحياة ، وأمه نجيبة ولدت النجباء ويشهد على ذلك كل الناس ، ويدها البيضاء يظهر أثرها في كل أزمة وملمة .

لقد حفظت لأولادها الذكر الجميل وهو أجمل وأنقى ما يورثه الإنسان ، وكان يتمنى أن يموت قبلها كي لا يفجع بفراقها ، ولكن أنى له ذلك ، وقد ظل خيالها لا يفارق

أحاسيسه وصورتها ماثلة أمام عينيه ، ولم يعد يعرف طعماً للراحة ، فملأت الحرقة فؤاده وأشعلت الذكريات قلبه الكلوم .

وفي مكان آخر من القصيدة يستسقي الشاعر لقبر أمه الغمام ، ويود لو نزفت عليه وحده دموع كل سماء :

فبأي كف أستجنُّ وأتقي
صرفَ النوائبِ أم بأي دُعَاءِ[1]
ومن المولُ لي إذا ضاقتْ يدِي
ومن المعللُ لي من الأدواء
ومن الذي إن ساورتني نكبةٌ
كان الموقي لي من الأسواء
أم من يَلِطُّ عليَّ سِتْرَ دُعَائِه
حَرَماً من البأساءِ والضراءِ[2]
رِزءان يزدادان طُولَ تجددٍ
أبدَ الزمان : فناؤها وبقائي
شهدَ الخلائقُ أنها لنجيبةٌ
بدليلِ من ولدتْ من النجباء
في كل مظلمِ أزمةٍ أو ضيقةٍ
يبدو لها أثرُ اليد البيضاء

---

(١) استجن : استتر .

(٢) لط الستر : أرخاه .

ذخرتْ لنا الذكْرَ الجميلَ إذا انقضى
ما يذخرُ الآباءُ للأبناء

قد كنت آملُ أن يكون أمامَها
يومي وتُشْفِقُ أن تكونَ ورائي

كم آمرٍ لي بالتصبر هاجَ لي
داءً وقدَّرَ أن ذاك دوائي

آوي إلى بَرْدِ الظلالِ كأنني
لتحرقي آوي إلى الرَّمْضَاءِ

وأهُب من طيبِ المنام تفزعاً
فزع اللديغِ نبا عن الإغفاء

يا قبرُ أمنحه الهوى وأودُ لو
نزفتْ عليه دموعُ كل سماء

وهكذا فإننا نلمح في رثاء الشاعر لوالديه عاطفة خالدة ومشاعر فياضة ، انطلقت مدوية من قلبه الملتاع ، بأسلوب جميل جمع إلى الوضوح القوة ، وإلى السهولة العمق ، وإلى الخيال الرحب واقعية لا يشوبها الرياء .

ومراثي الشريف في أصدقائه من أروع ما نظم ، إنها دمعات الوفاء يجلجل فيها كالبحر الهدار ، غاص على درر المعاني وافترع أجملها وأصلبها ، فاسمعوا رائيته الفذة في رثاء صديقه أبي طاهر بن ناصر الدولة الحمداني وقد قتله أبو الذواد العقيلي في شهر المحرم سنة ٣٨٤ هـ ، وقد شرح هذه

القصيدة العالم اللغوي ابن جني في حياة الشاعر نظراً لفصاحتها وبلاغتها :

ألقي السلاح ربيعة بن نزارِ
أودى الردى بقريعِك المغوارِ[1]
وترجلي عن كل أجردَ سابح
مِيل الرقابِ نَواكِسَ الأبصار
ودعِي الأعنةَ من أكفكِ إنها
فقدتْ مُصَرِّفَها ليوم مَغارِ
وتجنبي جَر القنا فلقد مضى
عنهن كبشُ الفيلقِ الجرار
قطعَ الزمانُ لسانَك العَضْبَ الشبا
وهدى تَخْمُّطَ فحلِك الهدار[2]
واجتاح ذاك البَحْرَ يطفحُ موجُه
وطوى غواربَ ذلك التيارِ
اليوم صرحتِ النوائبُ كيدهَا
فينا وبان تحاملُ الأقدار
مُستنزِلُ الأسدِ الهزبرِ برمحِه
ولى وفالقُ هامةِ الجبارِ

فالشريف يتحدث هنا عما كان عليه إبراهيم الحمداني من

---

(١) القريع : السيد المختار من قومه .
(٢) التخمط : الهدير .

شجاعة نادرة وعلو شأن وبطولة خارقة ، إنها صرخة مدوية إلى ربيعة بن نزار قبيلة المرثي ، إذ يدعوها الشاعر إلى إلقاء السلاح ومبارحة الجياد والانحناء إجلالاً واحتراماً لفقيدها البطل المغوار ، صنديد المعارك ومجلجلها البتار ، فارس الميادين البحر الخضم المزبد ، محطم الليث الهصور وقاسم هامة الجبار .

أرأيت هذا السيل من العبارات الجزلة والألفاظ الفخمة والصور الملهمة الجميلة ، ثم يتحدث الشاعر في مكان آخر من القصيدة عن عظمة بني حمدان ، فهم من خير الأعراق وأزكى الأنساب ، يعافون موت الذل والهوان ويقدمون إلى الوغى بصبر وشجاعة نادرين ، وينتقل بعد ذلك إلى الأمير الحمداني ، فيتخيل سحابة رعادة ماطرة تنحب عليه وتهمي على قبره العاطر عبراتها وعذب قطرها ، وانظروا إلى هذه الاستدارة الوجدانية الرائعة ، فهذا السحاب المدرار لا يعادل مجاري الدموع الفوارة وهي تسيل حرى أسفاً ولوعة على الأمير الحمداني .

إنه الخيال الخلاق ينسج أبراده في ومضات موفقة خلابة :

شـرفـاً بني حمـدان إن نفـوسَكُم
من خيـر عِـرقٍ ضـاربٍ ونـجـار
أنِفَتْ من المـوتِ الذليـلِ فأشعـرتْ
جَـلَداً على وقـعِ القنـا الخـطار

بكرتْ عليكَ سحابةٌ نفاحةٌ
تُلْقي زَلاَزِلها على الأقطار
شهاقةٌ أسفاً عليك برعدِهَا
طوراً وباكيةٌ بعذبِ قطار
وسقتك أوعيةُ الدموعِ فجاوزت
قطراتِ ذاك العارضِ المدرارِ

أما رثاء الشريف لصديقه الحميم أبي إسحاق الصابي فهو قمة الوفاء والإخلاص ، والمعروف أن الصابي كان يتوسم في الشريف المستقبل المرموق ، وكاد يبشره بالخلافة ليقينه أنه خليق بها ، وشعره في الشريف يشهد أنه كان يعظمه ويجله حتى عندما كان طفلاً استناداً إلى قوله :

أبا حسنٍ لي في الرجالِ فِرَاسةٌ
تعودتُ منها أن تقول فتصدُقَا
وقد خَبَرَتْني عنك أنك ماجِدٌ
سترقى من العلياءِ أبعدَ مرتقى
فوفيتُكَ التعظيمَ قبل أوانِه
وقلتُ أطال الله للسيدِ البَقا
وأضْمرتُ منه لفْظةً لم أُبحْ بها
إلى أن أرى إطلاقَها لي مُطْلَقا
فإن عشتُ أو إن مُتُّ فاذكر بشارَتي
وأوجِبْ بها حقاً عليك مُحققا

وترجع العلاقة بين الرجلين إلى عهد والد الشريف يوم كان الشاعر طفلاً يقرأ بإعجاب شعر أبي إسحاق ، وما لبثت هذه العلاقة أن توطدت كثيراً ، رسخها توافقهما في النظرة إلى المذاهب الأدبية ، وإيمانهما بالقيم الأخلاقية والإنسانية في المجتمع .

وتشير القصائد المتبادلة بينهما يوم أقعد المرض الصابي قبل وفاته بقليل إلى عواطف نبيلة جياشة قلما نقرأ مثيلاً لها في الشعر العربي .

وقد عاب بعض النقاد والأدباء على الشريف رثاء الصابي لأنه كان (مجوسياً) على دين منبوذ ، وكان رد الشريف أنه إنما يرثيه لفضله وخلقه وحسن سيرته وهو ما تقاس به الرجال .

ونعود إلى القصيدة ، وهي من أسمى آيات الوفاء ، تفيض بالقوة والمتانة ، وتستشعر معها طوداً شامخاً وعلماً نادراً من أعلام الشعر ، وهو في مطلعها يأسف على الفقيد الكبير ، إذ كان ضياء نوادي العلم والمعرفة ، والجبل العظيم الراسخ ، فثراه الطاهر يعلو على الأطواد والأعالي ، وقوته تزلزل البحار ، ثم يبكي الشاعر صديقه الحبيب ، وهو يرى أن العيون يوم وفاته اعتلت والأعضاد تهاوت ، فمن كمثله تبكيه النواظر والقلوب :

أعلمت من حملوا على الأعوادِ

أرأيت كيف خَبا ضياءُ النادِي

جبلٌ هوى لو خرَّ في البحر اغتدى
من وقعهِ مُتتابِعَ الإِزْبادِ
• ما كنت أعلمُ قبل حطك في الثرى
أن الثرى يعلوُ على الأطواد
بُعْداً ليومِكَ في الزمانِ فإنه
أقذى العيونَ وفَتَّ في الأعْضَادِ
لا ينفدُ الدمعُ الذي يُبْكَى به
إن القلوبَ له من الأَندَادِ.

ثم يتابع متعجباً من غياب ذلك الكوكب الوقاد وامحاءِ تلك الجناب الزاهرة الخضراء ، لقد طوت نوائب الدهر هذه المكرمات ، وذهبت بجواد صلب المراس ، ولم تكن لتستطيع ذلك لولا مشيئة الله وإرادته ، حيث أصبح أبو إسحاق رهن التراب ، ولو ينفع الافتداء ، لأنجدته فوارس لا تهزم ، في معارك البطولة والوغى :

كيف انمحى ذاك الجنابُ وعطلتْ
تلك الفجاجُ وضَلَّ ذاكَ الهَادِي
طاحتْ بتلكَ المكرمَاتِ طَوَائِحٌ
وعدَتْ على ذاك الجوادِ عَوادِي
قالوا أطاعَ وقِيدَ في شطْنِ الردى
أيدي المنونِ ملكت أي قِيَادِ
من مصعبٍ لو لم يقدْهُ إلهُه
بقضائِه ما كان بالمنقاد

هـــذا أبـــو إســحـــاق يـغـلـقُ رهـنـــهُ
هـــلٍ ذا يـــدٍ أو مـــانِـــعٍ أو قـــادِ
لـو كنت تُـفْـدَى لافتـدتْـك فـــوارِسٌ
مُـــطِرُوا بعـــارضِ كـــلِّ يـوم ِ طِـــرَادِ

وفي مكان آخر من القصيدة يؤكد الشاعر على وفائه لأبي إسحاق ، وحزنه على فراقه :

قـد كنتُ أهوى أن أشَـاطِرك الـردى
لـــكـــن أرادَ الـــلهُ غـــيـــرَ مُـــرادي
ولـقـد كَبَا طرفُ الـرقـادِ بنـاظـري
أسَـفـــاً عليـــكَ فـــلا لـعـــاً لِـــرقَـــاد
ثَكِلتـــكَ أرضٌ لم تَلِدْ لـك ثـــانيـــاً
أنـــى ومـــثـــلُكَ مُـــعْـــوَزُ الـــمـــيـــلاد
من للبـــلاغـة والفصـــاحـــة إن همى
ذاك الـــغـــمـــامُ وعـــبَّ ذاك الـــوادي
مـن للملوكِ يَجُـــز فـــي أعـــدائِـهـــا
بِـسظُبىً من القـــول البـلـيـــغِ جِـــدَادِ
إن الـــدمـــوعَ عليـــك غيـــرُ بـخيـلةٍ
والـــقـــلـــبُ بـــالـــســـلوان غَـــيـــرُ جَـــوادِ
ســـوَدْتَ مـــا بين الفضـــاءِ ونـاظِـري
وغـــســـلْتَ مـــن عـــيـــنيَّ كـــل ســـواد
يـا ليت أني مـا اقتنيتُـــكَ صَـــاحِبـــاً
كـــم قِـــنْـــيَـــةٍ جَـــلَبَـــتْ أســـىً لـفـؤادي

لا تـطلُبي يـا نفسِ خِـلّاً بعـدهُ
فـلمثـلِهِ أعـيَـا عـلى الـمـرتـاد
ضـاقَتْ علي الأرضُ بعـدَك كُلُّهـا
وتـركـتَ أضـيـقَـهـا عـلي بـلادي
لـك في الحشـا قبـرٌ وإن لم تـأوِه
ومـن الـدمـوعِ روائِـحٌ وغَـوادِي
فـاذهبْ كمـا ذهبَ الـربيـعُ وإثْـرهُ
بـاقٍ بـكـل خـمـايـل ونِـجَـادِ

أبيات عامرة بالقوة يشد بعضها بعضاً ، وأسلوب لم يجار الشريف فيه أحد ، وعاطفة من أنبل ما يشعر به الرجال ، والشاعر كان يتمنى أن يشاطر صديقه الردى ولكن أنى له ذلك والأمر بيد الله ، والصابي فريد عصره قل أن تلد الأمهات له مثيلاً . إنه لكل معضلة ومشقة ، وقد كان رجل الفصاحة والبلاغة والبيان ، لذلك بكاه الشاعر من الأعماق حتى اسودت الدنيا في وجهه وتمنى لو لم يكن قد اتخذه صديقاً وخليلاً حتى لا يفجع بخسارته ، ويبلغ حزن الشاعر أقصى مداه عندما يرى الأرض قد ضاقت عليه ، ويسطر أروع مثل في الوفاء للصداقة عندما يطلب من نفسه ألا تفتش عن صديق ، لأن مثيل من ذهب نادر الوجود ، لقد حفر له الشاعر قبراً في صدره ، وجعل من عينيه ينابيع دموع لا تنفد ولا تزول . وفي النهاية يرى الشاعر أن صديقه كفصل الربيع ، ما زالت آثاره خضراء وستبقى خالدة إلى الأبد .

وفي رثائه للأعيان وذوي النفوذ ، نقتطع من الديوان هذه القصيدة اللامية العصماء ، وقد قالها في الوزير الصاحب بن عباد يوم وفاته سنة ٣٨٥ هـ ، وهي طويلة جداً تزيد على المئة بيت وتعتبر من معلقات ذلك العصر .

والشريف في حياته كان مكبراً للعظماء ورجال الإنسانية وللقيم التي يجسدون ، وقد مدحهم ورثى من مات في حياته منهم ، فضرب بذلك أروع مثل في الوفاء .

وكان الصاحب إسماعيل بن عباد وهو من كبار الأدباء والشعراء ووزيراً لبني بويه معجباً بشعر الشريف مقدراً له حتى أنه أرسل إلى بغداد سنة ٣٨٥ هـ من ينسخ له ديوانه بكامله .

ولم يكن الشريف أقل تقديراً لشخصية الصاحب ، فقد مدحه بقصيدتين ، إحداهما سنة ٣٧٥ هـ والثانية شكره فيها على نسخ الديوان .

ورثاء الشريف للصاحب يقطر وفاءً وإعجاباً ، ويسيل قوياً عميقاً ، فاسمعوا هذا المطلع الجزل الذي ينبض بالقوة والأسى في وقت واحد :

أكـذا الـمـنـونُ تـقـنـطرُ الأبـطالا
أكـذا الـزمـانُ يُضَعْضِـعُ الأجبـالا (١)

أكـذا تُصَـابُ الأسْـدُ وهي مُـذِلَّـةٌ
تَـحْمـي الشُّـبـولَ وتمـنـعُ الأغْـيَـالا

(١) تقنطر : تردي .

أكــذا تقـامُ عن الفَــرائِس بعــدمــا
ملأت همـاهِمُهَـا الـورى أوْجَـالا [1]

أكــذا تُحطُّ الــزاخــراتُ عن العُلَى
من بعـد مـا شَــأتِ العُيـونَ منَــالا

أكـذا تُغَـاضُ الـزاخـراتُ وقـد طغتْ
لُــجَــجـاً وأوردت الـظمَــاءَ زُلالا

وفيه يعجب الشريف من تقلبات الأيام على الإنسان ، ويعتبر أن الموت جندل بطلاً من الأبطال ، والزمن بعثر جبلاً هائلاً من الجبال ، وأصاب أسداً كان يحمي الحمى ويحفظ الأبناء ، لقد ولى من سحرت شخصيته الناس ومن أرعب بصولته الأعداء ، وهوت الأمجاد من عليائها من بعد ما أعيت النواظر وكسفت العيون ، وغاض بحر المكرمات والجود من بعد ما كان صاخباً عليلا . ثم يتابع الشاعر متحدثاً عن مكارم الصاحب ومناقبه ، لقد كان رجل الكرم والعطاء والبأس والمروءة والنظر الثاقب والشجاعة النادرة ، والنخوة والمبادرة ، ملأ صيته البلاد وتعلق بذراه الناس ، والشاعر يتحدث عن خبر وفاة الصاحب وعن الشك الذي ساور الناس بادىء الأمر ، وكان يتمنى لو طال هذا الشك ، إلا أن الخبر كان يقيناً صدع القلوب وأسقط الأجنة :

يــا طــالبَ المعــروفِ حَلَّقَ نَـجْمُــه
حُط الــحُـمــولِ وعَــطِّلِ الأجـمَــالا

---

(١) أوجالا : الخوف .

وأقِمْ على يأسٍ فقد ذهب الذي
كان الأنامُ على نداهُ عِيَالا
من كان يَقْرِي الجهلَ عِلماً ثاقِباً
والنقصَ فضلاً والرجاءَ نَوالا
وَيُجَبِّنُ الشجعانَ دونَ لِقائِه
يوم الوَغى ويُشَجِّعُ السُّؤالا
خبرٌ تمخضَ بالأحبةِ ذكْرُهُ
قبلَ اليقينِ وأسلفَ البَلبَالا
حتى إذا جَلَّى الظُنُونَ يقِينُهُ
صَدَعَ القلوبَ وأسقط الأحمالا [1]
الشكُّ أبْرَدُ للحشا من مِثلِه
يا ليت شَكِّي فيه دام وطالا
جبلٌ تسنمتِ البلادُ هِضَابَهُ
حتى إذا ملأ الأقالِمَ زالا

ويتابع الشاعر حديثه بأسلوب تغلب عليه المبالغة أحياناً مما يدل على الحزن الكبير والألم المرير الذي كان يكتنف قلبه الكبير . فالصاحب طود هوى فزلزل الآفاق ، وتقطعت بفقده الآمال ، لقد ترك حطام الدنيا ونزع رداءها الفاني لينتقل إلى مكان مخصب علي ، ويتعجب الشاعر من الأقدار كيف استطاعت أن تنفد إلى الصاحب فترديه وهو آمرها وموجهها ، ومن

---

(١) الأحمال : الواحد حمل . ما يحمله المرأة من الولد في بطنها .

الأمجاد كيف عثرت بصاحبها بعد أن كان مقيل العثرات ، إلا أن ما يعزيه هو أن الموت قدر جميع الكائنات :

يا طودُ كيف وأنت عادِيُّ الذُّرى
ألقى بجانبك الردى زِلْزَالا
إن قطع الآمالَ منك فإنهُ
من بعد يومِكَ قطع الآمَالا
أنَفاً من الدنيا بَتَتَّ حِبَالَها
ونزعْتَ عنك قمِيصَها الأسْمَالا (١)
ذا المنزلُ المطعانُ قد فارقْتَهُ
وغداً تُبَوَّأُ منزلاً مِحْلالا (٢)
لا رُزْءَ أعظمُ من مُصَابِك إنه
وصَلَ الدموعَ وقَطَّع الأوْصَالا
يا آمِرَ الأقدارِ كيف أطعتها
أوما وَقَاكَ جلالُكَ الآجالا
ألَّا وَقى المجدُ المؤثَّلُ رَبَّهُ
ألَّا زَوى المِقدارُ ألَّا حالا (٣)
ألَّا أقالتْكَ الليالي عَثْرَةً
يا من إذا عثَر الزمانُ أقَالا

---

(١) بتت : قطعت ـ الأسمال : الثياب البالية .

(٢) المطعان : الكثير الظعن ، السير ـ تُبوأ : يهيأ لك .

(٣) زوى : منع .

وأرى الليالي طارِحاتِ جِبَالِها
تستوثقُ الأعيانَ والأرذالا

ثم يستأنف الشاعر مبيناً عظمة الصاحب وشخصيته الفذة ، إذ كان علماً في الدين فقده الإسلام ، وحجة في البلاغة والبيان ، تبكي مصيرها بعده الأقلام ، وسلطاناً أعز هو ملكه ، ولم يعتز بسلطانه ، حقق في حياته الأمن والنظام ، واستغل موته من كانوا يخافون سطوته ، فطفقوا يتعالون ويتكبرون ويفسدون .

كم حجةٍ في الدين خُضْتَ غِمَارَهَا
هَدْرَ الفَنِيقِ تَخَطُّماً وصِيَالا [1]

إن نَكَّسَ الإسلامُ بعدكَ رأسَهُ
فلقد رُزِي بك موئلاً ومآلا

واهاً على الأقلامِ بعدك إنها
لم ترضَ غيرَ بنَانِ كفك آلا

سُلطانُ مُلكٍ كنتَ أنتَ تُعِزُّهُ
وَلَرُبَّ سلطان أعَزَّ رِجَالا

إن المشَمَّرَ ذَيْلَهُ لك خِيفَةً
أرخى وجرر بعدك الأذْيالا

ويبهت الشاعر من طبيب لم يستطع أن يدفع عن نفسه مرضه العضال ، ومن مخصب للأرض مبيد للقحط يرتضي منزلاً يكتنفه المحل والجفاف ، ثم يتأسف في نهاية القصيدة على تلك الأيام

---

(١) تخمطاً : تكبراً ـ الصيال : السطو .

التي مرت دون أن يحظى فيها برؤية الصاحب ليستفيد من علمه وأدبه وشعره :

يـا شَـافي الأدواءِ كيـف جَهِلْتَهُ
داءً رمـاك بـه الـزمـانُ عُضـالا
يـا كاشفَ الأمحـالِ كيف رَضِيتَهُ
لـمقيـلِ جنبِـكَ مَنْـزِلاً مِمْحَـالا
قـد كنت آمُـلُ أن أراك فـأجتـني
فضـلاً ، إذا غيـري جنى أفضـالا
وأفِيـدُ سمعَـكَ مِقـوَلي وفضـائلي
وَتُـفِيـدُنـي أيـامُـكَ الإقبـالا

إلى هنا نكتفي بهذا القدر من الحديث عن الرثاء في شعر الشريف ، وفيه أفصح عن رأيه في الحياة ، وأظهر أسمى معاني الوفاء ، وتحدث عن مصير الإنسان وفجيعة الموت ، بأسلوب رائع ولغة فصيحة متينة حتى عد أمير شعراء الرثاء في الأدب العربي .

فن الغزل

الغزل فن قديم ، أتقنه العرب منذ الجاهلية وبرعوا فيه ، لقد استهوتهم العيون النجل ، وسلبت البابهم الوجوه الصبيحة والقامات الفارعة فاستعاروا لها ما رأوه في بواديهم ، ونسجوا حول حبيباتهم قصصاً معظمها من نسج الخيال .

وبقي هذا الفن شغل الشعراء الشاغل في العصور التالية ، والمعلوم أنه بلغ الذروة في العصر العباسي ، إذ أفحش فيه كثير من الشعراء وتهتكوا وأسرفوا خاصة في القرن الرابع الهجري عصر الشريف . فما هو موقع الشاعر آنذاك في هذا الفن .

إن ديوان الشريف مليء بقصائد الغزل والنسيب ، وكان الشاعر معروفاً عند القدماء بصدق اللوعة والصبابة ، وما يضيره لو قال غزلاً ، أَوَ لَمْ يكن من لحم ودم وأحاسيس ، أو ليس الغزل فناً شعرياً أصيلاً تفيض به مشاعر الوُد والحب ، ولكن حسبه فخراً أنه تغزل ولم يفحش ، نسب ولم يتطرف ، ولم يكن نسبه مكانته الاجتماعية والدينية وأخلاقه تسمح له بأن يُتطرف ، فهو ابن السادة الأشراف المعروفين بالتقى والورع ، وهو نقيب الطالبيين وأمير الحج ووالي ديوان المظالم ، ولذلك فهو لم يستطع أن

يجازف بمعنوياته مقابل الصبابة والوجد ، وإنما كان يلبي حاجات نفسه بما يتوقد فيها من الغرام ، والحب العذري الصادق ، وهو يرد على من اتهمه بالخروج على أدب الأخلاق بقوله :

وأكـذب بـالتـصـون مـدعـيهـم
وألـجـم قـائـليهـم بـالـعـفـاف

لذلك فهو في غزله ابن البادية وليس ابن بغداد ، شاعر الغزل العذري العفيف وليس شاعر التهتك والإباحية ، فقد اتسم غزله بالسمو والرقة والبراءة والصدق ، فلم ينادم فتاة ، ولم يكن في صباه وشبابه مستهتراً يسامر الظرفاء والماجنين :

أضعت الهوى حفظاً لحـزمي وإنمـا
يصان الهوى في قلب من ضاع حزمه

❊ ❊ ❊

أسوم الهوى نفساً عزوفاً عن الهوى
وقلبـاً لضيم الحب غيـر قبـول

وانظر إلى هذا الكبرياء والإباء وعفة النفس :

تضـاجعني الحسنـاء والسيف دونـهـا
ضجيعـان لي والسيف أدناهمـا مني
إذا دنـت البيضـاء مني لحـاجـة
أبى الأبيض الماضي فأبعـدها عني

وهكذا فقد كان الشريف في الغزل رقيقاً مهذباً ، فهو لم يتغن بمفاتن الجسد ولم يتطرق إلى الجوانب المادية في

الجمال ، وإن حصل ذلك فبدون فسوق ولا رفث ، لذلك كانت قصائده في الحب كؤوساً يعاقرها المتيمون ، ولقد شاع في كل مكان أن الشريف كان من المغرمين ، حتى إنهم ضربوا المثل بقصائده الحجازيات فقالوا ما معناه : لا تصقل نفس المتأدب إلا إن حفظ هاشميات الكميت وخمريات أبي نواس وزهديات أبي العتاهية وتشبيهات ابن المعتز ، ومدائح البحتري وحجازيات الشريف الرضي .

وحجازيات الشريف تمثل منهجه الغزلي خير تمثيل ، فقد كان طريق الحج سبيل الشاعر إلى الغزل ، فعليها تبلورت عبقريته الفذة ، ونسج من خلالها أقواساً من وجده المشبوب ، وقصائد عامرة بالجمال تعتبر من فرائد الشعر العربي ، امتازت عن غيرها بغرائب من الأحاسيس والمشاعر وبمعان طريفة تشوق العقول والأذواق ، حتى عد صاحبها من فحول الابتكار والإبداع .

وهكذا ففي مواسم الحج أنشد الشاعر الحجازيات، في مكة والمدينة، على الجبال وفي الأغوار، وشهد هناك حاجات من جنسيات متنوعة يقضين مناسكهن ويرمين الجمار بأنامل لدنة داعبت أوتار فؤاده فانطلق ينشد أعذب أغانيه وأروع ألحانه، حتى بلغت قصائده في مواسم الحج أربعين، وكان فيها مثال الجرأة والشجاعة حين استطاع أن يؤرخ هواه في موسم الحج، وينشد قصائده بين أقوام يهللون ويكبرون، ويقدم إلى الحجيج العراقي ما يبصره بالمشاعر

والمناسك ، حتى إن اللغة العربية لم تعرف أحداً سجل مشاهد الحج سوى عمر بن أبي ربيعة والشريف الرضي ، مع الفارق الكبير بين الاثنين ، فعمر شاعر الإباحية والتهتك ، والشريف شاعر العفة والنقاء والمجد ، لذلك فهو من رواد المدرسة العذرية بما تحمله من خصائص ومميزات ، وكان للتربية الدينية والأخلاقية وللبيئة التي نشأ فيها أثر كبير في أخلاقيات الشريف واتجاهات غزله ، لذلك نراه يركز في قصائده على مظاهر الطهر والعفة والذكرى ، حتى انه كان يصف الجمال بالسماع على حد تعبير الدكتور زكي مبارك في كتابه عبقرية الشريف الرضي ، كما كان يتشوق إلى الماضي ويتحسر على زمن الهوى والتصابي ، ويتحدث عما يعانيه من حزن ومرارة وأسى ، فيستعين بالنسيم وطائر البان ، ويقف على الطلول مستعبراً متذكراً أماكن الحبيب باثاً شكواه إلى ناقته أو فرسه .

ومن أجمل حجازياته قصيدة ميمية تحدث فيها عن ماضيه السعيد :

يـا ليلةَ السفحِ ألا عُـدتِ ثـانيـةً
سـقى زمـانَـك هـطالٌ مـن الـديمِ
ماضٍ من العيشِ لو يُفْدَى بذلتُ له
كـرائِمَ المـالِ من خيـلٍ ومن نَعَمِ
لم أقضِ منك لبانـاتٍ ظَفـرْتُ بهـا
فـهـل لي الـيـوم إلا زفـرةُ النَّـدَمِ

رُدوا عـلي لـيـاليَّ الـتـي سلفتْ
لم أنسهُنَّ ولا بـالعهـدِ مـن قِـدَمِ

فهو هنا يتذكر أيامه السالفة ويستسقي عليها الديم الغزيرة ، مُوَطِّناً نفسه على افتدائها لو تعود بالغالي والنفيس ، ولكن أنى له ذلك ، وقد مضت تلك الأيام دون أن يقضي في تلك الليلة لبانات فؤاده ، وما أشوقه لأماسيه السعيدة الماضية ، تلك الخالدة في أعماقه .

ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن قصة ظبية من ظباء الإنس جميلة نحيلة ، ممشوقة القوام :

وظـبيـةٍ مـن ظـبـاءِ الإنسِ عـاطِلةٍ
تستوقفُ العينَ بين الخمصِ والهَضَمِ (١)
لـو أنهـا بفِـنَـاءِ البيتِ سـانحـةً
لصِدْتُها وابتـدعتُ الصيدَ في الحـرمِ
قَـدِرْتُ منهـا بـلا رُقبى ولا حـذرٍ
على الـذي نـام عن ليلي ولم أنَمِ
بتنـا ضجيعين في ثـوبيْ هـوى وتُقى
يلفنـا الشوقُ من فـرعٍ إلى قـدم
وأمستِ الـريحُ كـالغَيْـرَى تجـاذِبُنَـا
على الكثيبِ فُضولَ الرَّيْطِ واللمَمِ (٢)

---

(١) الهضم : لطف الخصر وضمور البطن ـ خمص البطن : ضموره.
(٢) اللمم : الواحدة لمة ، الشعر المجاوز شحمة الأذن .

يشي بنا الطيبُ أحياناً وآونةً
يُضيئنا البرقُ مجتازاً على أَضَمَ (١)
وبات بَارِقُ ذاك الثغرِ يوضحُ لي
مواقِعَ اللثمِ في داجٍ من الظُّلَمِ
وبيننا عِفةٌ بايعتُها بيدي
على الوفاءِ بها والرعْيِ للذمَمِ
يُولِّعُ الطلُّ بُرْدَيْنا وقد نسمتْ
رُوَيْحةُ الفجرِ بين الضالِ والسُّلَمِ
وأكتُم الصبحَ عنها وهي غافلةٌ
حتى تكلمَ عصفورٌ على عَلَمِ
فقمتُ أنفضُ بُرداً ما تعلقَهُ
غيرُ العفافِ وراءَ الغيبِ والكرمِ
وألمستني وقد جدَّ الوَداعُ بنا
كفاً تشيرُ بقضبانٍ من العنمِ (٢)
وألثمتني ثغراً ما عدلتُ به
أرْيَ الجنَى ببناتِ الوابلِ الرُّذَمِ (٣)
ثم انثنينا وقد رابت ظواهرُها
وفي بواطننا بعدٌ من التُّهَمِ

فهي فتاة تجذب الأبصار ، استهوت الشاعر وملأت عليه

---

(١) يشي : ينم .
(٢) العنم : شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب .
(٣) الأري : العسل ـ الرذم : السائل من كل شيء .

فؤاده ، حتى إنه كان على استعداد لاصطيادها حتى لو كانت بفناء البيت الحرام ، لذلك فهو لم ينم حتى حظي بها ، فاضطجعا سوياً يغمرهما شوق جارف ، وحب لم يدنسه عيب ، إذ باتا طاهرين نقيين ، يجاذب الريح أثوابهما غيرة وحسدا ويفضحهما ضوء البرق وعبير الطيب ، ثم يتحدث عن جمال ثغر الفتاة وبريقه الفاتن الذي يدله على مواقع التقبيل واللثم في الظلمة الحالكة ، وما بينه وبين فتاته عهد بالعفة والوفاء والطهر في الحب ـ إنه مثال الفضيلة في عصر سقطت فيه معظم القيم والمبادىء ـ وما هو إلا وقت حتى كان الندى الساحر يضيء أثوابهما وقد هبت نسائم الفجر الجميلة بين أشجار الضال والسلم ، ولم يشأ أن يخبرها بقدوم الصباح حتى فضحه عصفور من مكان مرتفع ، فقام ينفض ثوباً لم يعلق به غير العفاف ، وأخذ بيدها المتوردة وقد آن الوداع ، ثم قبلته ثغراً أشهى من العسل المصفى لا يعدل ريقه بأي سائل آخر ، وما لبثا أن مالا مفترقين ، ظاهرهما يثير الريبة ، وفي بواطنهما عفة وطهارة وثقة لا تتزعزع بمسلكهما وعلاقتهما النقية المترفعة عن كل تهمة وادعاء .

ثم يتابع الشاعر متمنياً عودة ليالي السعد ، ليلم بتلك الديار ويقف بمنازل الحي ثانية ليغترف من جديد من فم حبيبته الريان فيطفىء حر قلبه المشتعل . ذكريات جمة يستعيد فيها لياليه مع أحبابه البعيدين هناك في بلاد الحجاز ، فيذرف أحر عبراته . إنه الهوى الذي لم يبرح فؤاده أبداً . والأحباب الذين لن يستبدلهم بآخرين ، لأن قلبه باق على الأمانة والوفاء :

يا حبذا لمةٌ بالرملِ ثانيةٌ
ووقفةٌ ببيوتِ الحي من أَمَمِ
وحبذا نَهْلَةٌ من فيكِ باردةٌ
يُعدي على حر قلبي بَرْدُهَا بفمي
ما ساعفتني الليالي بعد بينِهمُ
إلا بكيتُ لياليـنا بذي سَلَمِ
ولا استَجدَّ فؤادي في الزمانِ هوىً
إلا ذكرتُ هوى أيامنا القُدُمِ
لا تطلُبَنَّ لِي الأبدالَ بعدهُمُ
فإن قلبيَ لا يرضى بغيرهِمِ

واستمع إليه في هذه القصيدة الغزلية العصماء ، وقد انطلق ينشد أروع ألحانه وأنغامه على أوتار قلبه المشتاق في المحرم من سنة ٣٩٥ هـ - ١٠٠٤ م :

يا ظبيةَ البانِ ترعى في خمائله
ليهنكِ اليومَ أن القلبَ مرعاكِ
الماءُ عندكِ مبذولٌ لشاربهِ
وليس يُرْويك إلا مدمعي الباكِي
هبتْ لنا من رياحِ الغورِ رائحةٌ
بعد الرُّقادِ عرفناها بِريَّاكِ
ثم انثنينا إذا ماهزنا طربٌ
على الرحالِ تعللْنَا بذكراكِ

سهمٌ أصاب وراميهِ بذي سلمٍ
من بالعراقِ لقد أبعدتِ مرماكِ

وعدٌ لعينيكِ عندي ما وفيتُ به
يا قُرْبَ ما كذبتْ عينيَّ عيناكِ

حكتْ لحاظُكِ ما في الريمِ من مُلَحٍ
يومِ اللقاءِ فكان الفضلُ للحاكي

كأن طرفَكِ يومَ الجزعِ يخبرنا
بما طوى عنكِ من أسماءِ قتلاك

أنتِ النعيمُ لقلبي والعذابُ له
فما أمَرَّكِ في قلبي وأحلاك

عندي رسائلُ شوقٍ لست أذكرُهَا
لولا الرقيبُ لقد بلغتُهَا فاكِ

أية روعة في هذه القصيدة التي سارت بين المشرقين والمغربين ، وعارضها جمهور من الشعراء ، بل أي جمال يتلألأ في ثنايا الأبيات .

فالشاعر هنا يتحدث عن فتاة حجازية رمته بسهام لحاظها وهو في العراق فأسرت فؤاده ، وفجرت عينيه دموعاً باكية حزينة ، لقد أضحى قلبه مرعاها ، ودموعه النبع الذي يرويها ، أما رائحتها الزكية فقد حملتها إليه رياح الغور ، ويبلغ الحب الجارف بالشاعر أقصى مداه ، حين يرى سهم محبوبته يخترق فؤاده من الحجاز إلى أحشاء العراق ، أحشائه ، وهو يعلم أنها كثيراً ما كانت تماطل بوعودها كسائر ظبائه ، ويرينا الشاعر أن الحلاوة في عيون

النساء أمتع من الحلاوة في عيون الظباء ذلك لأنها تتمتع بصفة الإفصاح ، فعين الظبية تروع ، ولكنها لا تحدث ، أما عين المرأة فهي تروع وتحدث بألف حديث .

وفي ومضة غزلية جارفة يرى الشاعر أن محبوبته هي النعيم والجحيم لقلبه ، ولولا خوفه من الرقباء والعيون لبلغها رسائل مشبعة بالقبلات إلى ثغرها الفتان .

ثم يتابع الشاعر قصيدته فيشير إلى مناسك الحج في منى وليالي الخيف ويستمطر عليها صوب الغمام ، هناك يلتقي الظالم والمظلوم والمشكو والشاكي والمحسن والمسيء وهناك على مرابعها هام بحبيبته قاتلةَ المحبين وآسرة الأفئدة والقلوب :

سقى مِنىً وليالي الْخَيْفِ ما شَرِبتْ
من الغَمامِ وحياها وحَيَّاكِ
إذ يلتقي كُلُّ ذي دَينٍ ومَاطِلَهُ
منا ويجتمعُ المَشْكُوُّ والشاكِي
هامت بكِ العينُ لم تتبعْ سِوَاكِ هوىً
من عَلَّمَ البَينَ أن القلبَ يهواكِ
حتى دَنا السِّربُ ما أحْيَيْتِ من كمدٍ
قتلى هواكِ ولا فاديتِ أسراك

وانظروا إلى هذا الرجل المتدين ، أمير الحج ، المتفقه الورع ، الشريف الذي ذهب لأداء فريضة الحج فبهرته الصباحة فقال :

أحِبُّكِ ما أقامَ مِنىً وجمعٌ
وما أرسى بمكةَ أخشباها[1]
وما رفعَ الحجيجُ إلى المصَلى
يجرون المطي على وَجَاهَا[2]
وما نحروا بخَيفِ مِنى وكَبوا
على الأذقانِ مُشعَرَة ذُرَاها

أترون حباً أصفى وأصدق من حب الشريف . إنه الحب الخالد يقسم الشاعر في الرحاب الطاهرة المقدسة حيث كان يتلهف على الحسن تلهف الظامىء إلى الورد الممنوع .

نظرتُكِ نظرةً بالخيف كانت
جَلاءَ العينِ مني بل قذاها
ولم يك غيرُ موقِفِنَا فطارت
بكل قبيلة منا نَوَاها
فواها كيف تجمعنا الليالي
وآهاً من تفرقنا وآها
وأقسم بالوقوف على ألالٍ
ومن شَهِدَ الجِمَارَ ومن رماها[3]
وأركانَ العتيقِ وبانييها
وزمزمَ والمقامِ ومن سقاها

(١) الأخشبان : جبلا مكة ، أبو قبيس والأحمر .
(٢) رفعوا : أصعدوا ـ وجاها : حفاها .
(٣) ألال : جبل بعرفات .

لأنتِ النفسُ خالِصَةً فإن لم
تكُونيها فأنت إذن مُنَاهَا

ذلكم هو الشريف يطوف بالبيت فتقع عينه على روائع الحسن ، ثم يكشف الواقع غشاوة هواه ، إذ يعرف أنها لحظة لن تعود ، ومن الذي يضمن للشاعر أن يسمح الزمان بأن يرد إليه هوى قلبه ، أو يعيد إليه مواسم الحسن في مواسم الحج بعد عام أو أكثر ، لذلك نراه ينشد أغانيه من قلبه المشتاق ، فتسيل على أوتاره المرهفة أعذب الألحان ، فاسمعوا هذه الآه التي تنطلق من الأعماق ، وهذا القسم بالشعائر والمقامات يطلقه الشاعر معلناً أن حبيبته هي نفسه الغالية ، أو منيتها المتوخاة . وها هو في قصيدة من أروع قصائده الغزلية يذكر لهفته في مرافقة ركب حجاج بيت الله الحرام :

يا قلبِ ما أنتَ من نجدٍ وسَاكِنِه
خَلَّفْتَ نجداً وراءَ المدلجِ السارِي
راحتْ نَوازِعُ من قلبي تُتَبِّعُهُ
على بقايا لُبَانَاتٍ وأوْطَارِ
أهفُو إلى الركبِ تعلو لي رِكابُهُمُ
من الحِمَى في أُسَيْحَاقٍ وأطْمَارِ [١]
تضُوعُ أرواحُ نجدٍ من ثيابِهِمُ
عند النزولِ لقُرْبِ العهدِ بالدار

(١) أسيحاق : الثياب البالية ـ مصغر أسحاق .

يا راكبانِ! قِفَا لي واقضيا وَطِري
وخبراني عن نجدٍ بأخبارِ
هل رُوِّضتْ قاعةُ الدعْسَاءِ أم مُطِرَتْ
خَميلةُ الطلحِ ذَاتِ البانِ والغَارِ
أم هل أَبِيتُ ودارٌ عند كاظِمَةٍ
داري وسُمَّارُ ذاك الحي سماري
أيام أُودِعُ سري في الهوى فَرَسِي
وأكتمُ الحيِ إدْلاجِي وأخطَارِي
فلم يزالا إلى أن نَمَّ بي نفسِي
وحَدَّثَ الركْبَ عني دمْعِيَ الجارِي

فهنا يخاطب الشاعر قلبه الذي خلف نجداً وساكنيه ، القلب الذي ظلت أوتاره تتذكر أيام السعد واللقاء ، وتستعيد بقايا اللقاءات التي قضى فيها لبانات قلبه المشتاق ، لذلك فهو يتحدث إلى الحجاج ويسألهم عن أخبار نجد وهو يشم أريجها المتضوع من أثوابهم ، يسأل الراكبين أن يطفئا نار أشواقه ويحدثاه عن أخبار أحبابه هناك ، ماذا جرى بخميلة الطلح المزدانة بأشجار البان والغار وبدار كاظمة حيث كان يقضي أروع سويعاته مع سكان ذاك الحي ، آنذاك كانت له أسرار هوى وغرام لم يخبر بها سكان الحي ، وإنما كان يفضي إلى فرسه مكنونات روحه وخفايا قلبه المشتاق .

وكثيراً ما كان يفوت شاعرنا اللقاء فلا يسعد به ، ولا يتيسر له الاجتماع بمن يحب فيأسف ويتحسر ويذوب ألماً ووجدا كما عبر

عن ذلك في قصيدة عنوانها ليال مقمرات بالغواني ، يعلم الناس فيها أدب الصيد وتستحق أن تسمى أنشودة الحجيج على حد قول زكي مبارك :

مَنْ معيدٌ لي أيامي بجزْعِ السَّمُرَاتِ [1]
ولياليَّ بجمْعٍ وَمِنَى والجمراتِ
وظِبَاءٍ حالياتٍ كظباء عاطِلات
رامياتٍ بالعيُون النجْلِ قبل الحَصَيَاتِ
ألِعَقْرِ القلبِ راحُوا أم لِعَقْرِ البَدَنَاتِ

فها هو ذا الشريف يستعيد ذكرياته في مواسم الحج المباركة ، يوم حل في مكان توشيه أشجار السمرات وفي أوان نفرة الحجيج ورمي الجمار ، إذ شاهد الحاجات الحسان يرمين بعيونهن الواسعة الجميلة المحبين ، وكأنهن أتين لعقر القلوب لا لعقر الأضاحي كما يبدو في هذه اللفتة التساؤلية التي تعبر عن أثر هذه الظباء في نفس الشاعر وفؤاده المغرم الخفاق .

ثم يتابع الشاعر حديثه عن سرب الظبيات ، فقد فاته اصطياد إحدى ظبائه مما ولد في نفسه الأسى والحسرة وأخذ يتذكر ويستعبر ، تلك الغزلان والمها الثي نأت عنه ، والجيد الجميل ، والغرام الذي لا يرجو منه لقاءً جديداً ، ومع ذلك فقد كانت تلك الذكريات والليالي لآلىء تنيرها أضواء الغواني الجميلات ،

---

(١) جزع السمرات : اسم موضع ، والسمرات أساساً ضرب من الشجر .

مأمونة من حسد الوشاة ، تركت في نفس الشاعر شوقاً مر الجنى ، فمن ينجده بطبيب يبثه شكواه :

أيها القانِصُ ما أحـ سنْتَ صَيْدَ الظَّبيَات
فاتَكَ السربُ وما زُوِّ دْتَ غيرَ الحسرات
كم نأى بالنَّفْرِ عنا من غزال ومَهَاةِ
آهِ من جيدٍ إلى الدا رِ كثيرِ اللفَتَاتِ
وغرامٍ غيرِ ماضٍ بلقاءٍ غيرِ آتِ
فسقى بطن منى والخيفَ صوبَ الغاديَات
وزماناً نائِمَ العُذَّا لِ مأمُونَ الوُشاةِ
في ليالٍ كاللآلي بالغواني مُقْمِرَات
غرستْ عنديَ غرسَ الشوقِ ممرُورَ الجنَاةِ
أيْنَ راقٍ لغرامي وطبيبٌ لِشَكَاتِي

وهكذا أنشد الشريف قصائده الحجازيات . فسكب فيها عصاره قلبه وأحاسيسه المرهفة العامرة بالحب العذري الصافي النقي ، فذكر مواقع غرامه بالحجاز ، ولهفته في مرافقة ركب الحجيج ، متحدثاً عن أخبار نجد ولحاظ الظبيات وعيونهن النجلاء وخصورهن الضامرة وقدودهن الرشيقة ، وهو في وصفه لحبيبته يعتمد الرمز كما أشرنا ، فينعتها بالظبي تارة وبالغزال تارة أخرى أو بالروضة ، وأحياناً ينعتها بالقمر والشمس ، متحدثاً عن وجهها المشرق وثغرها اللامع كالبرق وريقها المعسول كالشهد وأسنانها البيضاء الناصعة كالبرد ، وهكذا فحجازيات الشريف بدوية الطابع ، إذ ينتقل فيها عبر الصحراء فيمر بمدنها وواحاتها

حيث قضى أيام حبه العفيف ، وإذا حان موعد الحج ولم يستطع الشريف الاشتراك به لسبب ما تتأجج ذكرياته فيبعث نظراته وسلاماته مع الركب :

أيـهـا الـرائـح الـمـغـذ تـحـمـل
حـاجـة لـلـمـعـذب الـمـشـتـاق
أقـر عَـنّي الـسـلام أهـل المـصلى
وبـلاغ الـسـلام بـعض الـتـلاقـي
وابـكِ عني فـطالمـا كنت من قـبـ
ـل أعـيـر الـدمـوع لـلعـشـاق

وفي غزل الرضي وفاء مطلق ، وإخلاص ، ومحبوبته واحدة في كل الأحوال ، يتألم ويتعذب ليظفر منها بلقاء أو وعد بلقاء :

عـديـني وامـطلي وعـدي فـحسـبي
وصـالاً أن أراك وأن تـريـنـي

وهكذا فحجازيات الشريف معارض فن وجمال ، تردد صداها في الأندلس وعارضها هناك الشعراء ، وكان فيها مجدداً مبتكراً في وصف مواسم الحج وفي التعبير عن حبه وغرامه بنبل وترفع في الأماكن الدينية المقدسة ، فهو إذا انتسب انتسبت رقة الهواء إلى نسيبه وفاز بالقدح المعلى من نصيبه كما جاء على لسان الباخرزي في دمية القصر .

ونكتفي إلى هنا بالحديث عن غرام الشريف من خلال الحجازيات لأنها تلخص كل خصائص فن الغزل عنده .

فن الفخر:

الفخر لغة مدح الإنسان نفسه أو قومه ، إذ يعمد فيه الشاعر إلى تعداد مكارمه ومزاياه وعرض فضائل قومه وخصالهم الكريمة ، وقد تتعدد الفنون الشعرية في القصيدة الفخرية ، فينتقل الشاعر من الفخر إلى المدح إلى الهجاء أو إلى غير ذلك كما نجد في معظم القصائد العربية . وقد فتن العرب بهذا الفن وبرعوا فيه ، وكان له في الجاهلية الصدارة ، إذ كانت تؤججه الحروب والنزاعات القبلية . ويزخر ديوان الشعر العربي بفيض من قصائد الفخر العارمة بالنخوة والرجولة والفروسية والشجاعة والأنفة والكبرياء . .

والشريف الرضي سيد هذا الفن بلا منازع ، وقد فاق فيه سابقيه ومعاصريه ، ومن يشأ التماس هذا الأمر فليعد إلى ديوانه ليجد سيلاً من قصائد الفخر والحماسة حافلة بالقوة والنبوغ والجمال والفتوة .

والشريف يأبى أن يفتخر بما ليس فيه ، وما مدح به نفسه مدحه به الكثيرون ، وعرفه عنه القريب والبعيد ، وقد دفعته

أسباب كثيرة إلى الفخر كان في طليعتها موقف مبغضيه وحاسديه ومعارضيه ، لذلك امتزج الفخر بالشكوى في شعره بعض الأحيان .

وقد بدأ الشريف بالفخر وهو في العاشرة من عمره يوم سجن أبوه فانطلق كالطير يغرد في سمائه العلية منشداً أناشيد الأحرار والفتوة ، وقد كان معجباً بوالده مجلاً له نظراً لتقاه وزهده وشجاعته ومكانته المرموقة بين الناس .

والشريف في فخرياته تغنى بمكارم أخلاقه وفروسيته ، وافتخر بنسبه وقومه ، ومجد شعره ، وكثيراً ما كان يقع تلازم بين النوعين الأولين ، إذ أن فخره بنفسه كان يقوده معظم الأحيان إلى فخره بنسبه الشريف .

أما فخره بنفسه فقد تعدد في قصائد كثيرة نراها متناثرة في الديوان .

وبانت موهبته الشعرية باكراً ، ولعل أول ما نطق به هو الفخر ، إذ كان يعشق المجد منذ طفولته ، ويتوق إلى المعالي ، فانطلق يفتخر وهو ابن عشر سنين :

المجد يعلم أن المجد من إربي
ولو تماديت في غي وفي لعب
إني لمن معشر إن جمعوا لعلى
تفرقوا عن نبي أو وصي نبي

إذا هممتُ ففتشْ عن شَبا هِممي
تجدهُ في مُهجَاتِ الأنجمِ الشهب
وإن عزمتُ فعزمِي يستحيلُ قذَى
تُدمى مسالكهُ في أعينِ النُّوَب

فالشاعر شجاع ذو همة عاليةٍ وعزم يحطم النوائب والشدائد ، ذو مجد أثيل ، ولا غرو في ذلك ، فهو من سلالة آل بيت الرسول (ﷺ).

وفي قصيدة أخرى يتحدث الشاعر عن بأسه في الحرب وفروسيته وقيادته للجيوش :

نبهتُهُمْ مثلَ عوالي الرماحْ
إلى الوغى قبل نُمُومِ الصباحْ
فوارسُ نالوا المنى بالقَنا
وصافحوا أغراضَهم بالصِّفَاح

فهو ينبه جنوده الفارعين كعوالي الرماح إلى الحرب قبل إطلالة الصباح ، ويفخر بهم إذ يريدهم على شاكلته شجعاناً في مواجهة الصعاب .

وهو في أرض أعدائه لا يرى بداً من القتال لتحقيق النصر ، وليرتاح من بحر الهموم المتلاطم :

يا نفسُ من همٍ إلى هِمَّةٍ
فليس من عِبْءِ الأذى مُسْتَراح

قد آن للقلبِ الذي كدهُ
طولُ مناجاةِ المنى أن يُراح
لا بد أن أركبَها صعبةً
وقاحةً تحت غُلامٍ وَقَاح
يُجْهِدُهَا أو ينثني بالردى
دُونَ الذي قُدِّرَ أو بالنجاح

والرضي تواق إلى الأمجاد ، لا يهاب الصعاب ولا يكترث للشدائد ، عزمه يفل الحديد ، وهو كريم أنوف ، تقصر الأفلاك عن مناله .

أرى نفسي تتوقُ إلى النجومِ
سأحملُهَا على الأمرِ العَظِيم
وإني إن صَبَرْتُ ثَنَيتُ قلبي
على طَرفٍ من البَلوَى أَلِيمِ
ولي أمَلٌ كصَدْرِ الرمح ماضٍ
سوى أن الليالي من خُصُومِي
ويعرفُني العدو بوقعِ رمحي
إذا ما الوجْهُ مُوَّهَ بالسُّهُومِ [1]
وما لي هِمةٌ إلا المعَالِي
وذبُّ الضيمِ عن نسبٍ صَمِيم

---

(١) موه : طلي ـ السهوم : العبوس .

وَقَوْدُ الخيلِ تركع من وَجَاهَا
وقد غَلَبَ النجيعُ على الكلومِ [1]

وقد نظم الشريف هذه القصيدة وهو في سن العشرين من عمره مما يدل على شاعرية فياضة وموهبة هائلة ، لقد كان المجد دأبه والمعالي همه وربما تكون النجوم التي يسعى إليها هي خلافة المسلمين والتي كان يرى نفسه جديراً بها . ويمزج في هذه الأبيات الفخر بالشكوى ، ويضيق صدره من حاسديه وخصومه الذين يعكرون عليه صفو أيامه .

وفي مكان آخر من القصيدة يؤكد على تحقيق أمانيه وأحلامه في زمن قريب ، ولذلك سيجند كل ما يستطيع غير آبه بالموت لأنه محتوم ، وليعلم الناس بأنه لا يقيم على ضيم ولا يصبر على مكروه :

ألا من مُبْلِغٌ الأحياءِ أني
قطعتُ قرائِنَ الزمنِ القديم
وأني قد أبِيتُ مُقَامَ رحْلي
بوادي الرمْثِ أو جبلِ الغميمِ
وعن قرب سَيَشْغَلُنِي زماني
برغْي الناسِ عن رعي القُرُومِ
وما لي من لقاءِ الموتِ بُدُّ
فما لي لا أَشُدُّ له حَزِيمي

---

(1) الوجى : الحفا ـ الكلوم : الجراح .

سألتمس العلا إما بعرب
يروون اللهاذِمَ أو بِرُوم[1]

ولو أني اعِنْتُ بآل عُكْلٍ
رَغِبْتُ عن الذوائِب من تميمَ

ويصل به الأمر إلى تهديد العباسيين مغتصبي ملك آبائه كما يذكر في هذه الأبيات :

ردوا تراث محمد ردوا
ليس القضيب لكم ولا البرد

إن الخلائف والألى فخروا
بهم علينا قبل أو بعد

شرفوا بنا ولجدنا خلقوا
وهم صنائعنا إذا عدوا

فهو هنا يفتخر على العباسيين ويدعوهم إلى رد الحق إلى نصابه والخلافة إلى أهلها الذين يفوق شرفهم كل شرف ومجدهم كل مجد ، حتى انه في قصيدة أخرى يتوعد العراق ، وينذر بأنه سيقتحمه بجيش لجب تتزلزل لهوله القلوب ، وهو لذلك يحث نفسه على هذا الأمر العظيم انه ابن النبي محمد ﷺ وسطوته لا يطفئها شيء .

أنا من علمت وليس يطفىء سطوتي
غلواء من يطغى إلي ويجهل

(١) اللهاذم : الأسنة القاطعة .

يغضي العدو إذا طلعت وقلبه
يغلي عليه من الضغائن مرجل
ما لي قنعت كأن ليس مهندي
بيدي ولا جدي النبي المرسل
. فلآخذن من الزمان غلبة
حقي وأمنع ما أشاء وأبذل
وعلي أن يطأ العراق وأهلها
يوم أغر من الدماء محجل
يوم تزل به القلوب من الردى
جزعاً وأحرى أن تزل الأرجل

وهو لذلك لا يكتفي بنقابة الطالبيين التي وليها مذ كان طفلاً ، فهي لا ترضي طموحه وأحلامه وإنما سيعمل على امتلاك شرق العلى وغربه موطناً نفسه على الجهاد والنضال :

ولي النقابة خال أمي قبل ثم أبي وجدي
وليتها طفلاً فهل مجد يعدد مثل مجدي
وأظن نفسي سوف تحملني على الأمر الأشد
حتى أرى متملكاً شرق العلى والغرب وحدي

وهو لا يرى غرابة في ذلك لأنه يمتلك ما لم يمتلكه غيره ، إذ يعدد فضائله ومزاياه العالية في قصيدة عامرة بالقوة والعنفوان :

لغير العلى مني القلى والتجنب
ولولا العلى ما كنت في الحب أرغب

ملكت بحلمي فرصة ما استقرها
من الدهر مفتول الذراعين أغلب
فإن تك مني ما تطاول باعها
فلي من وراء المجد قلب مدرب
فحسبي أني في الأعادي مبغض
وأني إلى غر المعالي محبب
وللحلم أوقات وللجهل مثلها
ولكن أوقاتي إلى الحلم أقرب

فالشريف حليم يصبر على الأذى وقد رضع في المهد لبان المجد والعلى ، حسبه فخراً أن غرر المعالي تحبه ، وأن مبغضيه هم أعداؤه وحاسدوه .

وتذهب به تخيلاته وآماله بالخلافة إلى حد أنه توهم أنه صار أمير المؤمنين مخاطباً نفسه :

هذا أمير المؤمنين محمد
كرمت مغارسه وطاب المولد
أوما كفاك بأن أمك فاطم
وأبوك حيدرة وجدك أحمد

ثم يذكر أنه لا يعبأ بالجاهلين ، ولا يستطيع أن ينال منه القائلون والهاجون ، فهو سيد المعالي والفصاحة ، وقطب البلاغة والأمجاد ، وقور لا تمكر به الصهباء ولا تأسر الألحان بأسه الشديد ، يعرض عن كأس النديم ويواجه منتقديه وخصومه

بالحجة القاطعة واللسان الذرب والعقل الحصيف والرأي السديد ، لأنه يأبى أن تمس عزائمه حثالات البشر وسقطات الزمان :

يصــولُ علـيَّ الجــاهلونَ وأعـتلي
ويعجمُ فِــيَّ القــائِلون وأعــربُ
يــرون احتمــالِي غصــةً ويــزيـدهم
لـواعــج ضغنٍ أنـني لـستُ أغـضب
وأعـرض عن كـأس النـديمِ كـأنهـا
وميض غمــام غــائرِ المـزْنِ خلب
وقــور فــلا الألحــانُ تــأسُر عــزمتي
ولا تمكرُ الصهبـاءُ بي حين أشـرب
ولا أعــرفُ الفحشــاءَ إلا بــوصْفِها
ولا أنــطقُ العــوراءَ والقـلبُ مغـضب
لسـاني حصاةٌ يقـرعُ الجهـلَ بـالحِمَى
إذا نــال مني العــاضــة المـتـوثـب
ولست بــراضٍ أن تـمس عــزائمـي
فُضَــالاتُ مـا يعـطي الـزمـان ويسلب

هذا غيض من فيض من مقاطع الفخر الشخصية التي يزخر بها ديوان الشريف ، مقاطع مقدودة من الفتوة ومنحوتة من البأس والعزيمة المتوقدة .

والفخر بالنسب وبالقوم كثير جداًفي الديوان ،فالشريف سليل

الدوحة النبوية المكرمة ، ويكفيه هذا فخراً حين يفتخر ، لذلك انطبع شعره بطابع الحماسة ، والشموخ مما أغنى خياله وصوره وأفكاره ، وهكذا طفق الشريف يتمجد بأجداده وآبائه الذين كانوا محط ثقة الناس واحترام أولي الأمر منهم . يفتخر بجديه النبي محمد (ﷺ) والإمام علي وبجدته فاطمة الزهراء ، فهو ابن أزكى الورى وخيرهم أباً وجداً ، وقومه أندى الناس وأشجعهم وأشدهم شكيمة ، لا يدانيهم الناس نخوة واستبسالاً ومروءة وكرماً :

قومي هم الناس لا جِيْلٌ سَوَاسِيَةٌ
الجُودُ عندهُم عارٌ إذا سُئِلُوا

أبي الوصِيُّ وأمي خيرُ والدةٍ
بنت الرسول الذي ما بعدهُ رُسُل

وأين قومٌ كقومي إن سألتُهُم
سَوابِقُ الخيلِ في يوم الوغى نزلوا

الطاعنينَ من الجبارِ مَقْتَلَةً
والضاربين وذيلُ النقْعِ مُنْسَدِلُ

والراكبين المطايا والجياد معاً
لا الشُّكْلُ تَحْبِسُهَا يوماً ولا العُقُلُ

ويكرر في قصيدة أخرى افتخاره بآل بيت الرسول :

يفاخِرُنَا قومٌ بمن لم يلِدْهُم
بتيمٍ إذا عُدَّ السوابقُ أو عَدِي

وينسون من لو قدموه لقدموا
عِذَارا جوادٍ في الجِياد مُقَلَّدِ

فتى هاشمٍ بعد النبي وبَاعُهَا
لمرمى عُلَى أو نيل مجدٍ وسؤدد

ولولا علي ما عَلَوْا سَرَوَاتِها
ولا جعجعوا منها بمرعى ومَوْرِدِ

أخذنا عليهم بالنبي وفاطمٍ
طِلاَعَ المساعِي من مَقَامٍ ومَقْعَدِ

وَطُلْنَا بسِبْطي أحمدٍ ووصيهِ
رِقَابَ الورى من مُتهِمين ومنجد

وَحُزْناً عتيقاً وهو غايةُ فخرِكم
بمولدِ بنتِ القَاسم بن محمد

فجدٌ نبيٌ ثم جَدٌ خليفةٌ
فما بعد جَدَّيْنَا علي وأحمد

فالشريف يرد هنا على قوم افتخروا على علي وبنيه وليس بينهم وبين الصحابة نسب أو قرابة ، فعلي مثل الشاعر الأعلى ، وأبناؤه بناة الأمجاد ، حازوا على إجلال الناس وتقديرهم وولائهم ، فأي مجد بعد يضاهي مجد الشريف ، ومن يستطيع أن يدعي مجد النبوة والإمامة في وقت واحد إلا إذا كان من صميم شجرة الرسول المباركة .

وتسحر شخصية علي مشاعر الشريف ، فاستمع له في هذه الأبيات الرائعة المحلقة وهو يخاطب الإمام أبا تراب قسيم الجنة والنار ، ساقي المؤمنين عند حوض الجنة المقدس ، ومن باسمه وبالتعلق به ينجو الإنسان يوم الحساب :

صلاةُ اللهِ تخفُق كل يومٍ
على تِلكَ المعَالمِ والقُبابِ
وإني لا أزال أكر عزمي
وإن قلت مساعدُة الصحابِ
وأخترقُ الرياحَ إلى نسيمٍ
تطلع من تُرابٍ أبي تراب
قسيمُ النار جدي يوم يلقى
به باب النجاة من العذاب
وساقي الخلقِ والمهجات حرى
وفاتحةُ الصراطِ إلى الحسَابِ

وفي قصيدة أخرى من الديوان يفتخر الشريف بمحمد وبعلي ، وبقومه بني هاشم فوارس الغارات ، وأصحاب الفضائل والمكرمات، خدمة بيت الله الحرام وأكرم من حج إليه :

إن أميرَ المؤمنين والدي
حَزَّ الرقابَ بالقَضاء الفَاصِلِ
وجدي النبي في آبائِهِ
عَلا ذُرَى العلياءِ والكواهل
فمن كأجدادي إذا نَسَبْتَنِي
أم من كأحيائي أو قبائلي
من هاشِمٍ أكرمِ من حَجَّ ومن
جَلَّلَ بَيْتَ الله بالوصائل

قومٌ لأيديهم على كل يدٍ
فضلٌ سِجالٌ من رَدَىً ونائِلِ [1]
فوارسُ الغاراتِ لا يُطْرِبُهُم
إلا نوازِي نَغَمِ الصواهل

وكان الشاعر معجباً بأبيه مجلاً له ، لما كان له من جاه عريض وأصل كريم ومكانة مرموقة وأخلاق عالية ، فاندفع يفتخر به معدداً أفضاله على الملوك والخلفاء ، مشيراً إلى أعماله الإنسانية وزهده وشجاعته وورعه وقناعته ، وعلو شأنه وعزة نفسه إذ كان لا يقبل الأرض بين يدي الملوك ، وقد جاء ذلك في قصيدة رائعة افتخر فيها أيضاً بآبائه جميعاً ، مشيراً إلى بطولة الإمامِ علي في صفين وإلى مواقفه الشجاعة في معركة بدر ، معدداً مآثر قومه ومكارمهم :

أبونا الذي أبدى بصفين سَيْفَهُ
ضُغَاءَ ابنِ هِنْدٍ والقنا يتقصَّفُ
ومن قبلِ ما أبلى ببدرٍ وغيرِها
ولا موقِفٍ إلا له فيه موقفُ
ورثنا رسول الله عُلوِيَّ مَجْدِهِ
ومُعظَمُ ما ضم الصفا والمعَرَّفُ
وهذا أبي الأدنى الذي تعرفُونَهُ
مُقَدَّمُ مَجْدٍ أولٌ ومُخَلَّفُ

---

(١) السجال : العطاء .

مؤلِّفُ ما بين الملوك إذا هَفَوْا
وَأشفوا على حز الرقابِ وأشرفوا
له وقفات بالحجيج شهودها
إلى عَقِبِ الدنيا مِنى والمُخَيَّفُ
ومن مَأثُرَاتٍ غير هاتيك لم تزل
لها عُنُقٌ عالٍ على الناس مشرف
حمى فاه عن بُسطِ الملوك وقد كبت
عليها جِبَاهٌ من رجال وآنُفُ

ثم يفتخر بأمه فاطمة بنت الحسين وبأسرتها ، إنها خير أم وأقرباؤها في عز ومجد ، لقد توارثوا العلى وارتقوا أرفع المناصب والذرى ، وجاء ذلك في معرض رثائه لها سنة ٣٨٥ هـ :

آباؤكِ الغُرُّ الذين تفجرت
بهِم ينابيعٌ من النعماءِ
من ناصرٍ للحق أو داعٍ إلى
سبلِ الهدى أو كاشفِ الغماءِ
نزلوا بعرعرةِ السَّنَام من العلى
وعَلوا على الأثْبَاجِ والأمْطَاءِ (١)
درجُوا على أثر القرون وخلفوا
طُرُقاً معبدةً من العلياء

---

(١) عرعرة السنام : رأسه ـ الأثباج : الواحد ثبج ما بين الكاهل إلى الظهر ـ الأمطاء : الواحد مطا : الظهر .

ـ أما فخر الشريف بشعره فقد ورد في أماكن متناثرة من ديوانه ، والفخر بالشعر كان مسلك كبار شعراء العربية ، وفي طليعتهم المتنبي والشريف وأبو تمام وابن الرومي .

• وفي قصيدة ميمية يرى الشريف أنه أشعر الأمم :

وحسبك أن يفل شبا ة هجوك أشعر الأمم

وشعر الشريف قلائد في أعناق الكرام تذهب أناشيد خالدة على ألسنة الناس، وقد جاء ذلك في معرض رثائه لابنة أخيه :

أبا قاسم جاءت إليك قلائد
تقلد أعناق الكرام مناقبا
قلائد من نظمي يود لحسنها
قلوب الأعادي أن تكون ترائبا
إذا هدها راوي القريض حسبته
يقوم بها في ندوة الحي خاطبا

وقصائد الشريف أسنة مسددة ونصال ماضية مشرعة في وجه أعدائه حاسديه ، وجداول رقراقة متهادية عذبة تبعث السرور وتزيح الهموم والأحزان :

كم من نظام قد نثرن هواجسي
حتى نظمت العذر فيه فصولا
وقصائد سددتهن أسنة
وشهرتهن قواضباً ونصولا

جعلت لرقراقِ السرور جداولاً
نحو القلوب وللهموم سبيلا

وهي في مكان آخر من الديوان مشهورة متفوقة ، تخترق الصحارى لتنعشها وتبعث فيها الحياة ، ثم أنها بهجة وسرور لأقوام وصواعق قاصمة على آخرين ، لا يعادل بها شعر ، إنها تاج القريض والدرة الضائعة في حلبات الشعر :

وعندي للزمان مُسومات
من الأشعارِ تخترقُ الفيافِي
قصائدُ أنست الشعراءَ طُراً
عِواءهم على أثرِ القوافي
بوارد للغليل كأن قلبي
يَعبُّ بهن في برد النطافِ
أسر بهن أقواماً وأرمي
أقواماً بثالثةِ الأثافي

ويطول بنا المجال إن تصدينا لفخر الشريف بشعره عامة ، وأظن أن ما أوردناه كافٍ لإلقاء الضوء على حقيقة هذا الفخر والمعاني التي اشتمل عليها . وأظن أن الشريف بز شعراء العربية في هذا المجال .

لقد افتخر الشريف وكان في ذلك متسامياً شامخاً ، متطلعاً أبداً إلى أكرم المقاصد وأنبل الغايات ، أنشد نشيد الفتوة العربية وربى النشء على الإباء والشجاعة والكرامة . وكان شعره جزلاً عميقاً متين العبارة قوي السبك .

الهجاء

الهجاء نقيض المديح ، وقد برز هذا الفن في العصر الجاهلي غذته العصبية القبلية والنزاعات الدائمة بين الأفراد والجماعات .

وأشد معاني الهجاء إيلاماً تلك التي تتناول النواقص النفسية والأخلاقية في المهجو ، وتسلب الإنسان القيم وتنسب إليه المثالب والمعايب .

ولم يشتهر الشريف الرضي بهذا الفن ، ولم يكثر منه ترفعاً وتعففاً ، فكان يصبر على أذى خصومه معظم الأحيان ، ويتجنب الكشف عن مخازيهم وعيوبهم :

وإني إذا أبدى العدو سفاهة
حبست عن العوراء فضل لسانيا
وكنت إذا التاث الصديق قطعته
وإن كان يوماً رائحاً كنت غاديا

فلم يفحش في القول ، ولم يهتك الأعراض ، ولم يتعرض

للمعايب الجسدية ، بل كان يعبر عن نقمته وألمه حول تصرف فرد أو سلوك جماعة يتعارض مع تفكيره وميوله .

وقد كان الشريف بارعاً في فن الهجاء ، إذ رسم صوراً متنوعة لمهجويه من ثلاثة اتجاهات هي : الهجاء الخُلُقي والهجاء السياسي والهجاء الساخر .

ويدور الهجاء الخلقي حول اللؤم والبخل والغدر والجهل والذل ، ومن ذلك قوله من قصيدة :

إذا رحلوا عن خِطَّةِ اللؤمِ خَالَفُوا
إليها بأعناقِ المطِي وعادوا

لهم مجلِسٌ ما فيه للمجدِ مَقعَدٌ
ومَرْبَطُ عَارٍ ما عليه جِيَادُ

بيُوتُهُم سُودُ الذُّرى ولِنَارِهم
مَواقِدُ بِيضٌ ما بهن رَمادُ

لهم حَسَبٌ أعمى أضَلَّ دلِيلَهُ
فلم يُدْرَ في الأحسابِ أين يُقَادُ

تَحيَّرَ في الأحياءِ ذُلًّا متى يَرُمْ
سَبِيلَ العُلى يُضْرَبْ عليه سِدادُ

وأيدٍ جُفُوفٍ لا تلينُ وإنها
ولو مَطَرتْ فيها الغيومُ جَمادُ

لهن على طَرْدِ الضيُوفِ تَعَاقُدٌ
هِرَاشُ كِلابٍ بينهُنَّ عِقَادُ

فـلا مَـرْحَبـاً بـالبيتِ لا فيـه مَفْزَعٌ
لـلاجٍ ولا لـلمسـتَـجـنٍّ عِـمَـادُ

فالشاعر هنا يهجو قوماً فينعتهم باللؤم والصغار والجبن والبخل الشديد والحسب الوضيع ، أيديهم جامدة لا تنبض بالخير والمعروف ، دأبهم طرد الضيوف ، فلا بورك بيت لا ينجد المستغيث ولا ينقذ الملهوف .

كما يرى الشاعر أن اللؤم طغى على هؤلاء وألف مجالسهم فاعتادوا عليه .

ويدور هجاء الرضي السياسي حول بني أمية بشكل عام ، ويظهر ذلك من خلال القصائد التي رثى فيها الحسين بن علي ، كما أنه هجا المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة البويهي ، وقد اتهم الرضي الأمويين بالانحراف عن الدين ، والتسلط على الخلافة حتى غدت فارغة من محتواها مزوية عن الناس ، كما أنه أنكر عليهم ما فعلوه بالعلويين :

أتُـرَى دَرَتْ أن الـحسيـن طـريـدةٌ
لـقَنـا بَنِـي الـطُّرداءِ عـنـد وِلادِهـا
كـانـت مـآتمُ بـالـعـراق تَـعُـدهـا
أُمَـوِيـةٌ بـالـشـام مـن أعْـيَـادِهـا
مـا راقبتْ غضَب النبي وقـد غَـدَا
زرعُ الـنـبـي مَـظِـنـةً لـحـصـادهـا

باعتْ بصائر دِينها بضَلالِها
وشرتْ معَاطِبَ غِيُّها بِرَشادِهَا
جعلتْ رسولَ الله من خُصَمَائِها
فَلَبِئْسَ ما ذَخَرَتْ ليوم مَعادِها
نسلُ النبي على صِعَاب مَطِيهَا
ودمُ النبي على رُؤوس صِعَادِها
إن الخلافةَ أصبحت مزويةً
عن شعبها ببياضها وسوادها
طمست منابرَهَا عُلُوجُ أميةٍ
تنزوُ ذئابُهُمُ على أعْوادِهَا
يا غَيرَةَ الله اغضبي لِنبيه
وتزحزِحي بالبِيض عن أغمادها
من عُصبةٍ ضاعت دماءُ محمدٍ
وبنيهِ بين يزيدها وزيادها
صفداتُ مال الله ملءُ أكفها
وأكُفُّ آل الله في أصفادها

فالشاعر يهجو بني أمية لقتلهم الحسين واتخاذهم ذكراه عيداً . وهم بذلك لم يراعوا النبي ولم يبالوا لغضبه لأنهم باعوا دينهم بضلالهم وتاهوا في غي بعيد ، فبئس ما ادخروا ليوم المعاد ، إذ سبوا نساء رسول الله وسقوا سيوفهم من دم بنيه وأصبحت الخلافة بعيدة عن الشعب منعزلة عن الناس والمجتمع ، فقد استولى على منابرها الأمويون ، لذلك يدعو

الشاعر إلى الانتقام من هؤلاء الذين فرطوا بدماء محمد وبنيه ، وأسروا آل البيت وسلبوا أموال الله وجعلوها لحسابهم الخاص .

أما الهجاء الساخر ، فقد تناوله الرضي بأسلوب يقوم على الوصف والتصوير الكاريكاتوري ، وقد سئل يوماً ذم مغن بارد قبيح الوجه رديء الصوت فانطلق يقول :

وَمُرَوِّعٍ لي بالسلامِ كأنما
تَسليمُهُ فيما يَمضُ وَدَاعُ
تَغْفَى بمنظرِهِ العيونُ إذا بدا
وتقيءُ عند غنائِه الأسماعُ
أبذاك نَستشفي ومن نغَماتِه
تتولدُ الآلامُ والأوجاعُ
أم كيف يُطْرِبُنا غناءُ مُشَوَّهٍ
أبداً نُهالُ بوجهه ونُراعُ
نَزْوِي الوجوهَ تفادياً من صَوْتِه
حتى كأن سَماعَهُ إسْمَاعُ
أشهى إلينا من غِنَائِكَ مَسمَعاً
زَجَلُ الضراغِمِ بينهُنَّ قِراعُ

فالمهجو مغن بارد فاشل ، تسليمه كوداعه ليس فيه حرارة ، قبيح تغمض لمنظره العيون، رديء الصوت تبعث نغماته الآلام، وكيف يمكن أن يطرب غناء مشوه يرعب شكله الناظرين، فيزوون وجوههم هرباً من صوته لأنه

يقرع بضجيجه الأسماع حتى ليظن أن كلامه شتيمة وسباب ، مما حدا بالشاعر إلى تفضيل أصوات الضراغم المتصارعة على غنائه .

وفي مقطوعة ثانية من ثلاثة أبيات سخر الشاعر من رجل قبيح الصورة فقال بعد أن سئل ذلك :

زلــلتُ في وقــفتــي عــلى طَـلَلٍ
بَـالٍ فـمن عـاذِري مــن الـزلـلِ
لــمـا تــأمَّـلْتُ قُــبْـحَ صُـورَتِـه
رَجَـعْـتُ أبــكـي دمــاً عــلى أمـلي
وَجْــهٌ كــظهـرِ المِجَنِّ مُشْـتَـرَقُ الـ
حُـسْنِ وأنـفٌ كـغـارِبِ الـجـمـلِ (١)

فقد خاب أمل الشاعر بذلك الرجل ، لما وجده قبيح الشكل ، وجهه صلب كظهر المجن وأنفه كغارب الجمل .

(١) لعله يقصد في مشترق مسترق الحسن ، أي مسروق حسنه ، فهو لا حسن فيه . وقوله وجه كظهر المجن ، أي صلب ، جاف . الغارب : الكاهل .

فن الوصف

فن الوصف قديم عند العرب ، عرفوه منذ جاهليتهم وأبدعوا فيه ، إذ وصفوا معظم ما رأوه وشاهدوه ، ونقلوا صوراً حية عن الحياة وما يكتنفها .

ولم يعدم العصر العباسي هذا الفن ، بل كان في طليعة الفنون آنذاك ، والشريف الرضي وصاف ماهر ، والغريب أن النقاد والأدباء لم يصنفوه بين الوصافين ، بل تجاهلوا هذا الفن الجميل عنده ، ولم يعرفوه إلا من خلال الفخر والرثاء والحجازيات .

ولعلهم لم يعرفوه وصافاً لأنه لم يجار ما دأب عليه شعراء عصره الآخرون من موضوعات وصفية ، فهو لم يصف الخمرة وآلاتها إلا نادراً جداً وبطريقة تختلف عن الآخرين ، ولم يتطرق إلى وسائل اللهو والطرب والغناء والمجون ، وغيرها من مظاهر الحياة المادية كالطعام والرياض والدور والقصور ، ولذلك فهو لم يتخذ الوصف فناً مستقلاً بذاته ، وإنما مال إليه في قصائده عن طريق الاستطراد .

وإذا كان الشريف قد أهمل وصف ما ذكرناه ، فما الذي في ديوانه من هذا الفن .

هل تعلمون أنه وصف كل ما يتسم بالعظمة والقوة والسخاء والخير ، إذ أنه يختار معظم الأحيان موضوعات تتلاءم مع شخصيته وتنسجم مع مشاعره وأحاسيسه وخطرات قلبه ، لذلك تحاشى وصف كل ما يمكن أن يمس بمركزه الاجتماعي والديني والإنساني .

وهكذا فليس في ديوان الشريف قصائد مستقلة في هذا الفن ، فوصفه أتى عن طريق الاستطراد ضمن مقطوعات صغيرة أو أبيات من قصيدة ، والشواهد كثيرة في الديوان .

سئل يوماً وصف فرخ حمامة ، فاستجاب ، لكن الفرخ جاء في القصيدة ، فرعاً لا أصلاً ، إذ شغل الشريف نفسه بوصف مناخ العيس وحولها الركب الطليح ولم يشغل نفسه بماسئل عنه إلا قليلاً فعبر بذلك عن مذهبه في الوصف أصدق تعبير :

لِحَبَّ إليَّ بالدهناءِ مَلْقَى
لأيدي العِيسِ واضِعَةَ الرِحَالِ
مُناخُ مُطَلَّحِينَ تَقاذفَتُهمْ
غَرِيبُ الحاجِ والهِمَمُ العَوالِي [1]

---

(١) المطلحون : المتعبون ـ الحاج : الواحدة حاجة .

أراحُـوا فـوق أعـضـادِ الـمـطَايَـا
قـد افـتـرشُـوا زَرَابـيَّ الـرِّمَـالِ[1]

فبيـن مُـمَـضْـمِضٍ بـالـنـوم ذَوْقـاً
وبيـن مُـقَـيَّـدٍ بِـعُـرَى الـكَـلالِ[2]

إلـى أن رَوَّعَ الـظلمـاءَ فـتْـقٌ
أغَـرُّ كجلحـةِ الـرجـلِ البَجَـالِ[3]

فـقـامـوا يـرتـقُـون عـلـى ذُرَاهَـا
سـلالِيمَ الـمَـعَـالِـقِ والـجِـبَـالِ

فالشاعر يتحدث في هذه الأبيات عن مكان محبب إليه في الدهناء ، تلتقي فيه العيس وتحط رحالها ، وترتاح القافلة بعد عناء كبير ، ويفترش الحجاج الرمال وهم بين غفوة ويقظة ، إلى أن استرعى انتباههم فتق أغر سمعوا دعاء الورق فيه فانطلقوا إليه .

ثم ينتقل الشريف إلى موضوعه الأساسي فراخ الحمامة :

وأرقـنـي دُعـاءُ الـوُرْقِ فـيـهـا
عـلى جُـرْحٍ قـريـبِ الإنْـدِمَـالِ

تـذكـرنـي بـسـالـفـةِ الـلـيـالـي
وسـالـفـة الـغـزالـةِ والـغـزال

---

(1) زرابي : بسط .
(2) الممضمض : الذي دب النعاس في عينيه ـ الكلال : التعب .
(3) الجلحة : انحسار الشعر ـ البجال : الشيخ الكبير والسيد العظيم .

وأيامُ الشبابِ مُسَاعِفَاتٌ
جُمِعْنَ لنا وأيامَ الوِصَال
أقول لها وقد رنت مِرَاحاً
لَبَالُكِ يا حمامةُ غيرُ بالي
تباعَدَ بيننا من قِيلَ شاكٍ
تعلقَ بالغرامِ وقيل سَالِي
تَرِيعُ إلى درادِقَ عاطِلاتٍ
وَهُنَّ بعيد آوِنَةٍ حَوَالِي [1]
لها صِنْعٌ يطول على طُلاَهَا
قلائِدُ لا تُفصَّلُ باللآلي [2]
عَوَارٍ لا تزال الدهرَ حتى
تُجملها بريْط غيرِ بَالِ
وكُلٌّ أزَيْرِقٍ قَصُرتْ خُطاهُ
كشيخِ الحي طأطأ للعوالي [3]
مِرَاحُكَ قبلَ طارقةِ المنايا
وقبلَ مرد عاديةِ الليالي

وهنا يستعيد الشريف صوراً نابضة من حياته الماضية ، فقد أرقه صوت الورق في مبيتها ، وكشف له عن جراحاته القديمة الجديدة ، إذ بعث ذلك الصوت الشجن في نفسه وهاجت به

---

(١) تريع : ترجع ـ درادق : الأطفال والواحد منها دردق .
(٢) طلاها : أعناقها .
(٣) أزيرق : مصغر الأزرق ، البازي .

الذكريات ، فمرت على صفحة مخيلته لياليه السالفة وغزلانه وأيام الشباب والوصال ، بعد ذلك أخذ يقارن بين حاله وحالها ، فهي سالية وهو مشغول بلواعج قلبه الحزين .

ويشير الشاعر إلى الأسد في ثلاث قصائد من ديوانه ولكن استطراداً ، ومنها قصيدة ميمية كان الغرض منها وصف سير الليل ، إلا أن الشريف استطرد إلى وصف الأسد وتلك حقيقة نلمسها كما قلنا في مقطوعاته الوصفية :

أقولُ إذا سالت مع الليل رِفْقَةٌ
تَقَاذَفُهَا حتى الصباح المَخَارِمُ (١)

دَعِي جنباتِ الواديين فَدُونَهَا
أشَمُّ طويلُ الساعدين ضُبَارِمُ (٢)

إذا هَمَّ لم تَقْعُدْ به عَزَمَاتُهُ
وإن ثَارَ لا تعيا عليه المَطاعِمُ

كأن على شِدْقَيْهِ ثغراً وَرَاءَهُ
ذَوَابِلُ من أنيابه وصَوَارِمُ

فما جذبَ الأقرانُ منه فَرِيسةً
ولا عاد يوماً أنفُهُ وهو راغِمُ

يرى راكبَ الظلماءِ في مستقرهِ
وتَستَنُّ منه في العرين الغَمَاغِمُ

---

(١) المخارم : الواحد مخرم : الطريق في الجبل .

(٢) الضبارم : الأسد .

نَمـرُ وراءَ الليـلِ نكتمُـه السُّـرَى
وقـد فضحتنـا بـالبُغَـامِ الـرَّوَاسِمُ (١)

لـه كُـلِ يـومٍ غـارَةٌ فـي عَـدُوِّهِ
تُشَـارِكُـه فيهـا النسُـورُ القَشـاعِمُ

كـأن المنـايَـا إن تـوَسَّـدَ بَـاعَـهُ
تـيقظُ فـي أنيـابـهِ وهـو نَـائِـمُ

فالشاعر في مطلع هذه القصيدة ذكر سير الليل ، ثم انتقل إلى وصف الأسد كما تشير الأبيات التي ذكرناها هنا ، وفيها ينصح الشريف رفاقه بترك جنبات الوادي كي لا يقعوا فريسة أسد جبار طويل الساعدين ، لا يستطيع أحد مهما كان أن يقف بطريقه إذا ثار ، ويظهر على شدقيه ثغر خلفه أنياب فتاكة ، وهو لا يعرف الذل ، ولا يجرؤ رفاقه على أن يسلبوه فريسته ، يرى وهو في مستقره المارين في الليلة الظلماء ، وهو مرعب تتوسد المنايا في أنيابه وهو نائم وتشاركه النسور حربه على عدوه .

واستمع إليه وهو يصف الثلج وصفاً رائعاً يوم سقط على بغداد سنة ٣٩٨هـ - ١٠٠٧م ، عبر مقطوعة من تسعة أبيات يوم أدهشه المنظر فاندفع يصفه وهو يغير على مدينة بغداد عند الصباح فيغشاها ، حتى طمست معالمها وصارت كالنوق المسلوبة الجلود وارتدت القمم والجبال عمائم وخمارات بيضاء ، واكتست الربى بساطاً أبيض يسر الناظرين .

---

(١) الرواسم : الإبل تسير الرسيم وهو ضرب من السير .

أرَى بـغـداد قـد أخـنـى عـلـيـهـا
وصَـبَّـحَـهَـا بـغـارتِـه الـجـلـيـدُ
كـأن ذُرَى مـعـالِـمـهـا قِـلاصٌ
نـوَاءٍ كُـشِّـطتْ عـنـهـا الـجـلـودُ [1]
كـأن بـه لُـغـامَ الـعِـيـسِ بـاتـت
تُـسَـاقِـطهُ عِـجَـالُ الـرَّجـعِ قُـودُ
غَـطَى قِـمـم الـنـجـادِ فـكـلُّ وادٍ
عـلـى نـشـزاتِـهِ سِـبٌّ جـديـد [2]
كـمـا تـعـرى بـه الـغِـيـطانُ مـحـلاً
وتَـغْـبَـرُّ الـتـهـايِـمُ والـنـجـودُ [3]
فـمـهـمـا شئتَ تـنـظرُ مـن ربـاهـا
إلـى بِـيـضٍ عـواقِـبُـهُـن سُـود

أما وصفه للسحاب فهو غاية الجودة ، ويبدو ذلك في وصفه لسحابة ماطرة ، ينصب ماؤها كالإبر فتخيط للرياض برودا . وتجعل من أمطارها في الربى قلائداً وعقودا :

من كـل سَـارِيـةٍ كـأن رَشَـاشـهـا
إبَـرٌ تـخـيط لـلـريـاضِ بُـرودا

---

(١) القلاص : الواحدة قلوص : الناقة الشابة ـ نواء : الواحدة نائية : البعيدة .
(٢) غطى : ستر ـ نشزاته : مرتفعاته ـ السب : الخمار والعمامة .
(٣) الغيطان : المطمئن الواسع من الأرض أو البساتين والجنائن ـ التهايم : الأراضي المنحدرة إلى البحر .

نثرتْ فرائدها فنظمت الربى
من دُرهِنَّ قلائداً وعقودا

وللقلم مكانة مرموقة في نفس الشريف ، ولطالما أشاد بقوته وأثره الذي لا ينازع في بناء الشعوب والأمم عبر التاريخ :

لك القلمُ الجوالُ إذ لا مُثقفٌ
يَجُولُ ولا عَضبٌ تُهابُ مواقعه
سواءٌ إذا غَشَّيْتَهُ النَّقْسَ رَهْبَةً
وذو لَهذَمٍ غُشي من الدم رَادِعُه
يُلَجْلِجُ من فوق الطروس لسانُه
وليس يُؤدي ما تقول مسَامِعُه
ويَنطِقُ بالأسرارِ حتى تظُنهُ
هواها وصِفْرٌ من ضميرٍ أضالِعهُ
إذا اسوَدَّ خَطْبٌ دونَه وهو أبيضٌ
يُسَوِّدُ وابيضتْ عليه مطالِعُه

فها هو ذا القلم ، يجول بلسانه فوق الطروس ، وينطق بالأسرار ، إنه أمضى من السيوف وأشد خطراً من الرماح .

ويستطرد إلى وصف قلم الصاحب بن عباد في معرض مدحه له سنة ٣٧٥ هـ وبقصيدة لم ينفذها إليه :

لك القلمُ الماضِي الذي لو قَرَنْتَهُ
بِجَرْيِ العَوالِي كان أجرى وأجودا

إذا انسل من عَقْدِ البَنَانِ حَسبتُه
يحوك على القُرْطَاسِ بُرْداً مُعَمَّداً
يُغَازِلُ منه الخَطُّ عَيْناً كَحِيلَةً
إذا عاد يوماً ناظِرُ الرمح أرْمَدَا
وإن مَجَّ نَصْلٌ من دمِ الصِّربِ أحمراً
أراقَ دَماً من مقتلِ الخطْبِ أسْوَدَا [1]
إذا استرعَفَتْهُ هِمَةٌ منك غادرت
قوادِمَهُ تجري وعيداً وموعدا

فقلم الصاحب جواد مرهف ، إنه أمضى وأسخى وأسرع من السيوف ، يتحرك بين الأنامل فيحوك على القرطاس بروداً جميلة ، إنها برود العلم والمعرفة ، وقد يغازل الخط عيناً كحيلة فيبدع فيها أجمل الصور ، أو يريق الدماء فينسج ملاحم .

أما مجالس الخمرة فقد وصفها الشاعر بعد أن سئل ذلك على لسان بعض الناس . وقد وقف في وصفه عند المعاني الوجدانية دون التوسع في المعاني الحسية ، وتجمل فيها تجمل النبلاء ، إذ أنه لم يجد من الوقار أن يتبذل في وصف الخمرة كما فعل غيره حفاظاً على مكانته الدينية والاجتماعية .

وليس كل من وصف الخمرة يكون قد عاقرها ، بل من الجائز أن لا يكون قد رآها ، فمدينة القاهرة لعهد ابن الفارض لم تكن تعرف الخمر ، ومع ذلك فقد شغل الناس بقصائده

---

(١) الصرب : الصبغ الأحمر .

الخمريات ، وأجاد الوصف فيها ، كما أن بعض الشعراء العميان كانوا يجيدون وصف الحروب كما اتفق لبشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وهكذا أفليس من الجائز أن لا يكون الشريف قد رأى الخمر مطلقاً ، ومن المحقق أنه لم يتناولها ولم يعرفها :

الراح والراحة ذل الفتى
والعز في شرب ضريب اللقاح

وقوله :

أعاف ابنة الكرم لا ابن الغما
م بين غبوقي وبين اصطباحي

وقوله :

وأعرض عن كأس النديم كأنه
وميض غمام غائر المزن خلب

هذا قليل من كثير من أوصاف الشريف . وكلها تكشف عن شاعرية محلقة ، وعبقرية فذة .

الشكوى والعتاب

مرت على الشريف همومٌ وأشجان ، فقد حاربه الدهر وتألب عليه القريب والصديق ، وابتلي بالحساد والمبغضين ، فلم يجد إلا الشكوى متنفساً له ، فأخذ يبث متاعبه وأحزانه في عتاب رقيق جميل .

فاسمعه في أبيات من قصيدة ميمية يذم الزمان :

فـأين من الـدهـر استمـاع ظُـلامتي
إذا نـظرَتْ أيـامُـهُ فـي الـمـظالـمِ
ولـم أدرِ أن الـدهْـرَ يـخـفضُ أهـلَهُ
إذا سكنت فيهم نـفـوسُ الضـراغِـمِ
ومـا العيشُ إلا مَـزْحَـةٌ إن هجـرتَهَـا
سطوْتَ على الـدنيـا بسطوةِ حَـازِمِ
سَـأَصْـبـرُ حتى يعلمَ الصـبـرُ أنني
ملكتُ بـه دفـعَ الخـطوبِ الهـواجِمِ
وآخُـذُ ثـأري من زَمَـانٍ تعـرضَتْ
مـغـارِمُـه بيـني وبـين الـمـغـانِـمِ

وما نام إغضاءً عن الدهر صارمي
ولكنني أُبقِي على غير رَاحِم
وإن أنا أهلكْتُ الزمانَ فما الذي
يُصَدِّعُ عزمي في صُدورِ العظائِم

فالشريف يتوجع من ظلم الدهر وجور الزمان ، الدهر الذي لا يعرف العدل والإنصاف ، لأنه يعطي اللئام ، ويسلب الكرام ، وإذ لم يسمع الدهر شكوى الرضي ، صمم على أن يأخذ هو ثأره بنفسه ، لذلك سيصبر على الأذى وسيتحمل المكاره لأن مقارعة الخطوب لا تتم إلا بالتجلد والصبر .

وفي أبيات من قصيدة أخرى يصب الشاعر جام لومه وغضبه على الزمان :

ألا قاتلَ اللهُ هذا الأنامَ
وقاتل ظَنِّي وآمالِيَهْ
ودهراً يُمَوِّلُ زَلَّاتِه
ولا يَدْخَرُ العُدْمَ إلا لِيَهْ
إذا ما تماثلتَ من غصةٍ
أعادَ المِرَارَ فَسَقَّانِيَهْ
فيا ليت حظيَ من ذا الزما
ن رَدُّ نوائِبهِ الجاريه
زمانٌ عدا العَيُّ أبناءَهُ
فأفصَحُ من ناطِقٍ رَاغِيَه

مشى الــدهــرُ بيني وبين النعيـ
مِ ظُــلمــاً وغَــيَّــر مــن حَــالِـيَـه

فالشاعر حزين ، خابت آماله وظنونه ، بعد أن رماه الدهر وسقاه الأسى كؤوساً مترعة ، وحال بينه وبين السعادة والنعيم ، وجعل حياته ظلاماً .

ولام الشاعر بعض أصدقائه للومهم وتقلبهم :

ألا قــطع الــنــاسُ حبــلَ الــوفــاءِ
أُوْلِــعَ بــالــغــدرِ خُــلانِــيــه
وصِــرتُ أعــدُّ فــي ذا الــزمــانِ
صَــدِيــقــيَ أوَّلَ أعــدائــيــه
أضــرُّ الأنــامِ لــي الأقْــرَبُــون
وأعــدى الــورى لــي جِــيــرانِــيَــهْ

إذ قطعوا حبل الوفاء وأولعوا بالغدر ، حتى تحولوا إلى أعداء ، وصار أضرَّ الناس له أقرباؤه ، وأعداهم له جيرانه .

كما شكا الشريف من أقاربه ، فقد كانوا عوناً عليه مع الدهر :

قُــلْ لــلذيــن بلوتُــهــم فــوجــدتُــهــم
آلّاً وغــيــرُ الآلِ يــنــقــعُ غُــلتــي
أعــددتــكــم لــدفــاعِ كــلِّ مُــلــمــةٍ
عــنــي فــكــنــتــم عــونَ كــل مــلــمــة

وتخذتكُمْ لي جُنَّةً فكأنما
نظر العدُو مقاتلي من جُنَّتِي
لا عُذْرَ لي إلا ذهابي عنكم
فإذا ذهبتُ فيأسُكم من رجعتي
فلأرحلنَّ رحِيل لا متلهِّفٍ
لفراقكم أبداً ولا متلفت
ولأنفضنِ يديَّ يأساً منكم
نفضَ الأنامِل من ترابِ الميت
وأقولُ للقلبِ المنازِع نحوكم
أقْصِرْ هواك لك اللتيا والتي
يا ضيعةَ الأملِ الذي وجهتهُ
طمعاً إلى الأقوامِ بل يا ضيعتي

فالشاعر يكاد يقتله اليأس ، بعد أن خاب ظنه فيمن كان يتوسم فيهم الخير والمحبة والوفاء ، لذلك يعزم على الرحيل عنهم غير آسف على فراقهم ، حتى انه ينوي أن يقطع معهم كل علاقة وينسى أنهم كانوا أقرباءه ومحبيه .

وقد تألم الشاعر من قوم سرقوا شعره وانتحلوه ، ولم يؤدوه خالصاً نقياً ، بل شوهوه بما أضافوه عليه من ضعيف الأبيات ، لذلك وجه لهم نبال القول وشكاهم وتوعدهم :

ألا من عَذِيري في رجالٍ تواعدُوا
لحربِيَ من رامي عُقوق ورامِحِ

وغــرهُمْ مني اصــطبــارٌ على الأذى
وقــد يكظِمُ المرءُ الأذَى غيرَ صــافح
أغــاروا على ذَوْدٍ من الـشعــر آمِنٍ
تقــادَمَ عنــدي من نِتَــاجِ القَــرايــح
فيــا ليتهُمْ أدوه في الحي خَــالِصــاً
ولم يَخْلِطُوه بِــالـرزايــا الــطلايِــح [1]
دعــوا وِرْدَ مــاءٍ لستُم من حَــلالِــهِ
وَحُلوا الــروابي قبـل سَيْـلِ الأبَـاطِـح
ولا تستـهِبُّـوا الـعــاصفــاتِ وأصلُكُم
نَجيــلٌ رَمَتْ فيــه الـليــالي بـقــادِحِ
خمـولُ الفتى خَيْرٌ من الـذكرِ بـالخنا
وجَــرِّ ذيُـول المُنْـدِيَـاتِ الفَــواضِــحِ [2]
وعـنــدي قــوافٍ إن تلقـيـن بـالأذى
نــزعْنَ بمُــرِّ القَــوْلِ نـزعَ المــواتِـحِ

تلك بعض أشعار الشكوى والعتاب ، صور مؤلمة لمعاناة الشاعر في مجتمع لم ينصفه كل الإنصاف .

---

(١) الطلايح : المعيبة ـ الرزايا : الضعاف .
(٢) المنديات : الكلمات ألتي يندى لها الجبين خجلاً .

الحكمة والمثل

يزخر ديوان الشريف بالحكم ، التي تعبر عن رأيه بالحياة وشؤونها ، وحياته الأخلاقية والدينية والمثالية جعلته إنساناً حكيماً في كثير من مواقفه ، وتتناثر الحكم في قصائد كثيرة ، تكثر في بعضها وتقل حتى تصل إلى البيت الواحد في البعض الآخر.

وإذا قرأنا قصيدته اللامية التي عزى فيها الخليفة الطائع عن عمر بن إسحاق بن المقتدر وجدناها مشحونة بالحكم والأمثال ويقول فيها :

أيرْجِعُ ميتاً رنةٌ وعَوِيلُ
ويَشْفَى بأسراب الدمُوع غليلُ

نُطِيلُ غراماً والسُّلُوُّ مُوَافِقٌ
ونُبْدِي بكاءً والعزاءُ جميلُ

شبابُ الفتى ليلٌ مُضِلٌ لِطُرْقِهِ
وشيبُ الفتى عَضْبٌ عليه صقيلُ

فما لونُ ذا قبلَ المشيبِ بدائمٍ
ولا عَصْرٌ ذا بعد الشبابِ طويلُ

نُؤمِّـلُ أن نروى من العيشِ والـردى
شَـرُوبٌ لأعـمـارِ الـرجـالِ أكُـولُ
وهيهـاتَ مـا يُغنِي العـزيـزَ تَعَـزُّزٌ
فيبقى ولا يُنجِي الـذليـلَ خُـمُـول
نقـولُ : مَقِيلٌ في الكرى لجُنُوبِنَا
وهـل غيـرُ أحشـاءِ القبـورِ مَقِيـلُ
دعِ الفكـرَ في حُبِّ البقـاءِ وَطـولِـهِ
فهَمُّـكَ لا العمـرُ القصيـرُ يـطولُ
ولا ترجُ أن تعطى من العيشِ كثرةً
فكـل مُقامٍ في الـزمـانِ قـليـل
ومن نـظر الـدنيـا بعين حقيقـةٍ
درى أن ظِـلاً لـم يَـزُلْ سيـزول

فالشاعر يرى أن كل شيء إلى زوال ولن يعيد العويل ميتاً والبكاء مفقوداً ، ذلك لأن الموت نهاية كل مخلوق ، ولن تنفع الحياة الإنسان ولن تطيل عمره ، ولن يغنيه فيها شيء ، لذلك عليه ألا يمني نفسه بالبقاء لأن همومه هي التي تكبر وليس عمره ، ومن نظر إلى الدنيا بعين العقل أيقن أن كل ما فيها سيزول .

وفي قصيدة بائية قالها في مدح أبيه سنة ٣٧٧ هـ أشار إلى الدور الذي تلعبه المادة في حياة الإنسان :

إذا قـلَّ مالي قـل صحبي وإن نما
فلي من جميع الناس أهـل ومرحبُ

غنى المرء عزٌ والفقيرُ كأنه
لدى الناس مهنوءُ الملاطين أجربُ

فالمال يكاد يطغى على سلوك الإنسان ، إذ يكثر أصحاب الغني طمعاً في ثروته ، وإذا تضاءلت انفضوا عنه ، لذلك يهمل الناس الفقير ، علماً أن عزة النفس هي الغنى والثروة والجاه .

كما يرى الشريف أن الفقر ينئي صاحبه ويعزله أما الثراء فإنه يدنيه ويرفع من مقامه ، كما أن الحرص شقاء وعناء ، أما القناعة فإنها ثروة وغنى :

الفقر ينئي والثراء يدني
والحرص يشقي والقنوع يغني

كما يرى أن الغنى يجلب البخل والكسل والقعود :

إن الغنى مجلبة للضن
وللقعود والرضا بالوهن

وفي موضع آخر من قصيدة بائية يعلن أن الفقر ذل ، يبعد الأقربين ، والغنى عز يدني الأبعدين ، والمال سلاح هام فعال ، يطاعن به الثري أعداءه وينتصر عليهم :

إن كان فقر فالقريب مباعد
أو كان مال فالبعيد مقارب
وأرى الغني مطاعناً بثرائه
أعداءه والمال قِرن غالب

ويقرب من تلك المعاني حول الصداقة والأصدقاء ما قاله في الجزء الثاني من الديوان من قصيدة لامية :

بلوتُ وجربتُ الأخلاّءَ مُدةً
فأكثرُ شيءٍ في الصديقِ مَلالُ
وما راقني ممن أوَدُّ تَملقٌ
ولا غرني ممن أحِب وِصَالُ
وما صحبُكَ الأدنون إلا أباعِدٌ
إذا قل مالٌ أو نَبَتْ بك حَالُ
ومن لي ببخلٍ أرتضيهِ وليت لي
يمِيناً يُعَاطِيهَا الوفاءُ شِمَالُ

وينصح الرضي الإنسان بتجنب الأعداء والابتعاد عنهم ، فهم ينبتون مع الدهر ، وسهامهم تصيبه من حيث لا يدري ، مهما حاول اتقاءها :

تجافَ عنِ الأعداءِ بُقْيَا فَرُبما
كُفِيتَ ولم تَعْقُرْ بنابٍ ولا ظُفْرِ
ولا تبرِ منهم كُلَّ عُودٍ تَخَافُهُ
فإن الأعادِي ينبُتون مع الدهر
إذا شئت أن تبقى خَلِياً من العِدى
فعِشْ عيش خَالٍ من علاءٍ ومن وَفْرِ
وهَبْكَ اتقيتَ السهمَ من حيثُ يُتّقى
فمن ليدٍ تَرْميك من حيثُ لا تدري

كما يدعو الشاعر إلى الاعتماد على النفس ، لأن الاتكالية توان وخنوع :

قطع الهوينا واستمر وإنما
بعضُ التوكلِ في الأمورِ تَوانِ

ما ضاقَ همأ كالشجاع ولا خلا
بمسرةٍ كالعاجز المتواني

ويركز الشريف في حكمه على الصبر ، فهو سلاح فعال في المصائب والشدائد ، فالوجد لا تزيله العبرات ، وأكبر عزاء للإنسان هو أن يتجمل بالصبر :

فأما ولا وجد يزول بعبرة
فصبر الفتى عند البلاء جميل

يهون عندي الصبر ما وقعت به
صروف الليالي والخطوب نزول

دراسة مجملة حول أسلوب الشريف

أشرنا في ما سبق إلى ومضات خاطفة من شعر الشريف .

ودرسنا كل فن بمفرده ، فوقعنا على مواطن جمالية رائعة لم يهتد لها كثير من الشعراء المفلقين .

وقد أجاد الشريف في كل غرض وأبدع في كل فن .

ففي شعره تتمثل صور الوفاء والمحبة والإلفة والتسامح والعتاب الرقيق .

إنه يبني الإنسان ويربي الأخلاق ويصنع الأجيال ، لأنه يخلد في قصائده المثل العليا من كرم ونخوة وشجاعة وأنفة وإيثار .

لقد جعل قصائده مدرسة تحتذى في الشكل وفي المضمون .

فلم يقع في سقطات الشعر بل ظل متماسكاً كالبنيان المرصوص .

اختار الألفاظ المناسبة الفخمة الرنانة وسبكها في تعابير

خلاقة متكئاً على عمق في اللغة وأصالة في الفكرة ، واعتمد الأسلوب العميق الجزل والخيال النابض بصور حية من الحياة . وكان للبلاغة نصيبها الأوفى في شعره .

وقد جمع الشاعر بين الإكثار والإجادة في معظم الأغراض وهذا شيء لا يمكن أن يتوفر لأي شاعر .

نماذج شعرية

في الفخر

هـذي الرمـاحُ عصِيُّ الضالِ والسلمِ
لـولا مُـطَاعَـنَـةُ الآراءِ والـهِـمـم

إن الـذوابـلَ والأقـلامَ أرشـيـة
إلى العُلى لملوكِ العـرب والـعجـم

مـا يطلبُ الـدهرُ والأيـامُ من رجلٍ
يعـوذُ بـالحمـد إشفـاقـاً على النعم

إذا اقتضتـه الأمـاني بعض مـوعـده
غـطى بسترِ العـطايا عـورةَ العَـدمِ

من مـد مِعْصَمُه مُسْتَعْصمـاً بيـدي
عَـصَمْتُـهُ بـإخـاء غـيـرِ منـجـذِم

ومـنْ أشَيـعْـهُ يـأمَنْ من لـوائمـه
ولـو رَمَـوْهُ بِـجَـرَّاح من الـكـلم

ولو هتكتُ حجاب الغيب لافتضحت
أجفـانُ كـل مـريبِ اللحظِ مُتَّهَمِ

كفى الـذي سَبني أني صبرتُ لـه
فـاستنصرَ العُـذْرَ واستحيا من الحُرَم

بُـرْدِي عفيفٌ إذا غيـري لفجْـرَتِـه
كـانت منـاسِـجُ بُـرْدَيْـهِ على التُّهَمِ
أنـا زهيـرٌ فمن لي في زمـانِـك ذا
ببعض مـا اقتـرفت عنـه يـدا هــرم
إذا العـدو عصاني خـاف حَدَّ يـدِي
وعِــرْضُـه آمِنٌ من هــاجـراتِ فمي
جعلتُ سمعي على قولِ الخنَا حَرَما
فــأيُّ فــاحِشَــةٍ تــدنــو إلى حــرم
يكـاد أنفي إذا مـا استـافَ مـرتبـةً
من التـواضع ينضـو خُلْعَةَ النّعَمِ
جـدي النبي وأمي بـنتُـه وأبـي
وصــيــه وجــدودي خِــيــرةُ الأمــم
لِقَصْــدِنَــا تتمــطى كُــلُّ رَاقِصَــةٍ
هوجاءَ تخبطُ هامَ الصخر والرَّجَمِ
لـنــا المـقــامُ وبيـتُ الله حُجـرَتـهُ
في المجـد ثابتـةُ الأطنـابِ والـدُّعُمِ
ومــولـدي طــاهـرُ الأثـوابِ تحسَبُنِي
وُلدتُ في حِجرِ ذاك الحِجرِ والحَرمِ

في الوصف

قال الشريف واصفاً البدر والثريا :

وَدُجًى هتكتُ قِنَاعَهُ　　عن وجهِ طامِسةٍ خَفِيه
تسري كواكبُهُ إلى الإ　　صْبَاحِ والليلُ المطِيه
والنجمُ وجهُ مُقَبَّلٍ　　والبدرُ مِرْآةٌ صَدِيَّه

وقال في وصف بعير :

رب نائي المِلاطِ يُحسَبُ جيدا
　　خَائِلاً بين غَرْضِهِ وَصِدَاهْ
إن ثناه الزمامُ جرجر كالرا
　　عِدِ بالليل لج في قرقاره
وكأن اللُّغَامَ يسقط من فيـ
　　ـه هوافي ما طم من أوْبَارِهْ

وقال في صفة الطعن :

ولا قِرْنَ إلا أدمَعَ الطعنُ نَحْرَهُ
　　وما غَسَلتهُ بالدموعِ مدامِعُه

ويــومٍ كـأن السمهــري عيُونُــهُ
إلى الموت والنقعُ المُشَارُ بَرَاقِعه
يُخَـرَّقُ منـه كُـلُّ جِلبـابِ مهجَـةٍ
على أنه في منظر العينِ رَاقِعُـه

وقال في وصف الليل :

وليــلٍ كجلبـابِ الشَّبَــابِ رقعتُــهُ
بصُبـحٍ كجلبابِ المشيب طـلائعُـهْ
كــأن سمـاءَ اليــومِ مــاءٌ أثــارَهُ
من الليـل سَيْلٌ فـالنجـومُ فـواقعُـه

وله في وصف الذئب :

وعَارِي الشَّوَى والمنكبينِ من الطوَى
أتيـحَ له بـالليلِ عـارِي الأشَاجِـع
أغَيْبـرُ مقـطوعٌ من الليــل ثـوبُـهُ
أنيسٌ بــأطـراف البــلاد البلاقِــعِ
قليــلُ نعـاسِ العينِ إلا غِيَــابَــةً
تمـر بِعينَيْ جـائمِ القلبِ جـائِـعِ
إذا جَن ليـلٌ طاردَ النومَ طـرفُـهُ
ونَصَّ هُـدَى ألحـاظِـهِ بـالمـطامِـعِ
لـه خَـطْفَــةٌ حَـذَّاءُ من كــل ثَلَّةٍ
كنشـطَةِ أقنى ينفُضِ الـطلَّ وَاقِــع

في المديح

من قصيدة قالها في مدح الخليفة العباسي الطائع لله، ويشكره فيها على ما أظهره وأسداه إلى أبيه من الجميل بعد أوبته من فارس سنة ٣٧٦ هـ.

هي سلوةٌ ذهبت بكل غرامِ
والحبُّ نهبُ تطاوُلِ الأيامِ

نَفَض الصبابَة خاطِري وجَوانحي
وأبى المذلةَ مَنزِلي ومَقامِي

ما كنتُ أسمحُ بالسلامِ لِمُعْرِضٍ
وعلى أمير المؤمنين سَلامي

ملكٌ سما حتى تحلَّقَ في العُلى
وأذلَّ عِرنينَ الزمانِ السامي

يابن القماقِمِ والغطارِفَة الأُلَى
قِممِ العُلى ودعائِمِ الإسلام

الطودُ أيْهَمُ والسماءُ عريضةٌ
واليومُ أيومُ والقَلَمَّسُ طَامِ

سِيمـاءُ مشتهـرٍ وقلبُ مُشَيِّـعِ
وأنـاةُ مُـقْـتَـدِرٍ ورأيُ إمـام

أمرُ الخلافة في يديـك وإنمـا
هي عُقْبَـةٌ تُقْضَى بكـل هُمٰـامِ

قد كان جَدُّكَ عِصمة العربِ الأُلى
والآن أنت لهـم من الإعـدام

حفظوا أياديك الجِسَامِ وإنمـا
وُصُّـوا بحفظِ الخَيـلِ والأنعـام

بالطائِع الهادي الإمامِ أطاعني
أَمَلي وسَهَّلَ لي الزمـانُ مَرَامي

من مَعْشَـرٍ مـا فيهم إلا فَتَى
أوْ جـائـدٌ أو ذائـدٌ أو حـامِ

قَـوْمٌ إذا عزموا الغِوَارَ تـراجعوا
يتقـاسمون ضَراغِمِ الآجـامِ

لا يستقِـرُّ المـالُ فـوق أكُفهم
كالسيل يزلقُ عن ذُرى الاعـلام

البيتُ ذو العُمَدِ الطوال يُظِلُّهُمْ
بين القنـا والحـامِـل الهَمْهَـامِ

يَفْـدِيـك كُـلُّ مُـزَنَّـدٍ ومُعَـرَّدٍ
يـوم الـوغـى وَمُطَاوِلٍ وَمُسَـامِ

هـذا الحسينُ وقد جذبْتَ بضَبْعِه
جَـذْبـاً يُمِـرُّ قَـرائِن الأرْحَـامِ

أعطيتَهُ مَحْضَ المودةِ والهَوَى
وغرائِبَ الإعزازِ والإكرام

وردتَهُ بالقولِ ليس بخُلَّبٍ
في عَقْبِهِ والوَعْدُ غَيْرُ جَهَامِ

لما رآك رأى النبيَّ محمد
في بُرْدَةِ الإجلالِ والإعْظامِ

ورأى بمجلِسِكَ المعَرِّقِ في العُلى
حَرَمَ الرجاء وقُبة الإسلامِ

أوسعتَ من خطواتِه في موقف
متغلغِلٍ بتضايُقِ الأقدامِ

ورفعْتَ ناظِرَهُ إليك مُسَلِّمَاً
في أي أُبهةٍ وأيِّ مَقَامِ

فاسلم أمير المؤمنين لِغِبْطَةٍ
معقودةٍ بذوائبِ الأعوامِ

وتملَّ أيامَ البقاءِ ولا تزل
تطغى بِشُكْرِكَ ألسُنُ الأقْوَامِ

في النسيب

وهي من الحجازيات

تذكرتُ بين المأزمَينْ إلى مِنًى
غزالاً رمى قَلْبِي وراحَ سَلِيما

لئن كنتُ أستحلي مواقعَ نبلِهِ
فإني ألاقي غِبَّهنَّ أليما

أصابَ حَرامَاً ينشُدُ الأجرَ غُدوَةً
فما عاد مأجُورا وعاد أثيما

فلو كان قلبي بَارِئاً ما ألمتُهُ
ولكن أسْقَاماً أصَبْنَ سَقِيما

إذا بَلَّ من دَاءٍ أعادَتْ له المَهَا
نُكاساً، إذا ما عاد، عاد مُقيما

يظُنونني استطرَفْتُ داءً من الهوَى
وهيهاتَ، داءُ الحب كان قديمَا

قنصتُ بجمعٍ شَادِناً فرحِمتُه
وأخفقَ قناصٌ يكونُ رَحِيما

أأغدُو مُهِيناً بالحبائِلِ سَاعَةً
غَزالاً على قلبي الغَداةَ كَريما

تـراءتْ لنا بـالخَيفِ نفـحُ لَـطيمـةٍ
سـرت عنـك إلا عبقـةً ونسيمـا
ولم أر مثـلَ المـاطِـلاتِ عشيـةً
ذواتِ يَسـارٍ مـا قضَيْنَ غَـرِيمـا
فـلا يُبْعِـدِ اللهُ الـذي كـان بيننـا
من العهـدِ إلا أن يكـون ذَمِيمَـا

في الرثاء

من قصيدة يرثي فيها الشريف أحد أصدقائه من أمراء بني عقيل عندما ورد نعيه سنة ٣٨٥ هـ .

منـابتُ العشبِ لا حامٍ ولا راعِ
مضى الردى بطويلِ الرمح والباعِ
القـائِدِ الخيـلَ يـرعيهـا شكـائِمَهـا
والمطعمِ البـزْلَ للديمـومـةِ القـاعِ
يسقي أسنتـهُ حتـى تقـيءَ دَمـاً
ويهـدم العيـسَ من شـدٍ وإيضـاع
ما بات إلا على همٍّ ولا اغتمضتْ
عـينـاه إلا عـلى عـزمٍ وإزْمَـاع
خـطيبُ مجمعـةٍ تغلي شقـاشِقُـه
إذا رمـوه بـأبـصـارٍ وأسـمـاع
لـمـا أتـاني نـعيٌّ مـن بـلادكم
عَضضتُ كفي من غيظٍ على الناعِي
أبـدِي التصامُمَ عنـه حين أسمعـه
عَمْداً وقد أبلغَ النـاعون أسمـاعي

كم فَجْعتني الليـالي قـبله بـفتى
مُشَمِّـرٍ بغـروبِ المجـد نـزاعِ
يمر صـوتي فـلا يلوي بجـانبِـه
وكـان يكفيـهِ إيمـائي وإلمـاعي
من كانَ أنسيَ أضحى وحشتي وغدا
من كـان بُـرئي أسْبَـاباً لأوجـاع
أنـزلتُهُ حيثُ لا يَظْما إلى نهل
ولا يُبـالي بـاخْصَـاب وإمـراع
وارتعتُ حتى إذا لم يبقَ لي طمعٌ
أملت نهجَ دمـوعي غيـر مرتـاع
في كـل يوم أكُـر الطرفَ ملتفتاً
وراء نجم من الأقـرانِ منصـاع
أمـانـعُ الـدمـعَ عينـاً جِـد دامِعَـةٍ
وألْـزِمَ اليـد قلبـاً جـد مـلتـاع
هـل دمعةٌ حـذفتهـا العينُ شـافيـةٌ
داءً حنـوتُ عليـه بين أضـلاعي
أم هــل يَـرُد زمـانٌ في ثنيتـه
لـنـا أوائـلَ سُـلافٍ وطُـلاع
جـر الزمـانُ على قـومِي سنـابِكَـهُ
وأوقـعَ المـوتَ فيهم أي إيقـاع
واستـطعمتني المنايا من أضَنُّ به
فكـان بـالـرغم إطعـامي وإشبـاعي

مصادر البحث ومراجعه

١ ـ ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ـ بيروت ـ دار إحياء التراث .

٢ ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ بيروت ـ دار صادر سنة ١٩٦٦ م .

٣ ـ ابن الجوزي ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ـ مطبعة دار المعارف العثمانية بحيدر آباد سنة ١٣٥٧ هـ .

٤ ـ ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ بيروت ـ دار الثقافة .

٥ ـ ابن معصوم ـ الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة ـ النجف الأشرف ١٩٦٢ م .

٦ ـ أبو منصور الثعالبي ـ يتيمة الدهر ـ بيروت ـ دار الفكر اللبناني ـ سنة ١٩٧٣ م .

٧ ـ كارل بروكلمان ـ تاريخ الأدب العربي ـ ترجمة عبد الحليم النجار ـ مصر ـ دار المعارف سنة ١٩٦٨ م .

٨ ـ الشيخ عبد الحسين الحلي ـ الشريف الرضي (تلخيص البيان في مجازات القرآن) . ـ بيروت ـ دار الأضواء ـ ١٩٨٦ م .

٩ ـ الشيخ عبد الحسين الحلي ـ الشريف الرضي (كتاب حقائق التأويل في متشابه التنزيل) ـ بغداد ـ منتدى النشر ـ سنة ١٩٣٦ م .

١٠ ـ محمود مصطفى ـ الشريف الرضي (المجازات النبوية) ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

١١ ـ زكي مبارك ـ عبقرية الشريف الرضي ـ صيدا ـ المطبعة العصرية .

١٢ ـ زكي مبارك ـ النثر الفني في القرن الرابع الهجري ـ بيروت ـ دار الجيل .

١٣ ـ الشيخ عبد الله نعمة ـ مصادر نهج البلاغة ـ بيروت ـ دار الفكر سنة ١٩٧١ م .

١٤ ـ حسن محمود أبو عليوي ـ الشريف الرضي (دراسة في عصره وأدبه) ـ بيروت ـ مؤسسة الوفاء سنة ١٩٨٦ م .

١٥ ـ ديوان الشريف الرضي ـ صنعة أبي حكيم الخبري ـ تحقيق عبد الفتاح الحلو ـ باريس ـ دار الطليعة سنة ١٩٧٦ م .

١٦ ـ ديوان الشريف الرضي ـ بيروت ـ دار صادر ـ ١٩٨٣ م .

فهرس الموضوعات